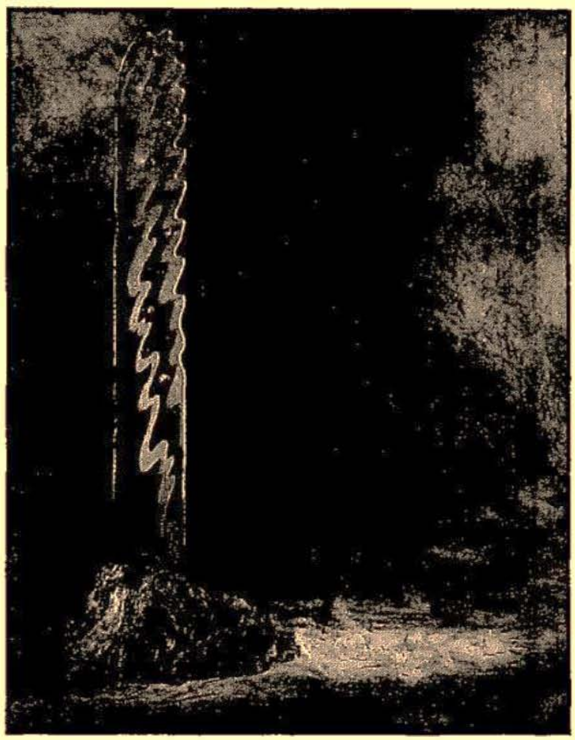
أنطونيو تابوكّي

ليالٍ هنديّة

رواية



ترجمة: مَعن مصطفى حَسّون

دار الكلمة

لياِلٍ هندية

- ليالٍ هندية (رواية)
- أنطونيو تابـوكّـي
- الطبعة الأولى 1998
- دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ برامكة ـ ص. ب: 2229

هاتـــف و فـاكـــس : 2126326

- الإخراج : دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع
- تـوزيـع : دار الكلمـة و دار الحصـــاد

أنطونيو تابوكّي

ليالٍ هندية

(رواية)

ترجمة: معن مصطفى حسون

الأشخاص الذين ينامون بشكل سيء، يبدو أنهم تقريباً مذنبون. ما الذي يفعلونه في الحقيقة؟ إنهم يجعلون الليل حاضراً.

موريس بلانشو

ملحوظة

هذا الكتاب، إضافة إلى أنه أرق حقيقي، فهو عبارة عن رحلة.

أرق فيما يخص من يكتب الكتاب، ورحلة فيما يخص من يقوم به.

مهما يكن الأمر.. وحيث أن الصدفة قد جمعتني بالأمكنة ذاتها.. تلك الأمكنة التي سبق أن عاش فيها بطل الرواية، فإني وجدت من المناسب جداً تقديم فهرست مقتضب يتضمن هذه الأمكنة.

ولست أدري، بالضبط، ما إذا كان وهْمُ تقديم ذخيرة طبوغرافية للأمكنة مضافة إليها قوة تأثير الحقيقة يمكن أن يلقي الضوء على هذا (الليلي) حيث يتم البحث فيه عن ظل، أو الافتراض غير المعقول، بأنه يوماً ما يمكن أن يستخدمه هاوٍ لرحلات غريبة ومتناقضة كدليل سياحي له.

انطونيو تابوكّي

فهرست بأسماء الأمكنة الواردة في هذا الكتاب

1 ـ فندق كاجوراهو ـ شارع سوكلاجي ـ بدون رقم. بومباي

2 ـ بومباي ـ Bhulabai Desai Road - Breach candy Hospital

3 ـ تاج محل ـ أنتركونيتننتال هوتيل ـ بوابة الهند ـ بومباي

4 ـ غرف استراحة الخطوط الحديدية ـ محطة فكتوريا ـ الخطوط الحديدية المركزية ـ بومباي ـ حجز مسبق لبطاقة قطار صالح أيضاً للـ Indrail pass.

5 ـ فندق تاج كوروماندل رقم 5 نونكامباكام. مدراس.

6 ـ الجمعية الثيوصوفية ـ شارع اديار 12 ـ اديار ـ مدراس

7 ـ اوتوستوب ـ طريق مدراس ـ مانكالور 50 كم بعيداً عن مانكالور ـ مكان مجهول

8 ـ ARCEBISPADO وكوليج سان بوافنتورا ـ طريق كالانكوت ـ باناجي ـ فيلباجوا ـ جوا

9 ـ فندق زواري سواتانتريا بدون رقم ـ فاسكودغاما ـ جوا.

10 ـ شاطئ كالانكوت. تقريباً 20 كم عن باناجي ـ جوا

11 ـ فندق ماندوفي ـ 28 باندودكار مارج. باناجي ـ جوا.

12 ـ فندق أوبروي Bogmalo Breaeh . جوا.

ملحوظة للمترجم

فرضت عليّ الأمانة في النقل أن أنوه هنا إلى أنّ العنوان الحقيقي للرواية في اللغة الإيطالية هو (NOTTURNO INDIANO) وهو في هذا يتضمن صفتين (الليلي والهندي) الواحدة تلو الأخرى وهذا غير وارد في اللغة العربية. لذا فإن الترجمة الحرفية للكتاب هي (ليلي هندي) وهو عنوان وجدته ثقيلاً بعض الشيء، ولن تطيقه اللغة العربية. على كل نشير هنا إلى أن العنوان الحقيقي والأصلي للرواية يُقصد به التعبير عن ذلك الجانب الليلي والغامض لما يحدث. إنه يمثل بالضبط هذا الجانب. ولما كانت الأحداث تجري في الليل، فإني توصلت إلى هذا العنوان (ليالٍ هندية) الذي وإن كان غير دقيق كما أعترف، بحق، فإنه ـ إضافة إلى هذا التوضيح، وإلى ما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الرواية ـ يمكن أن يساعد القارئ على فهم المعنى الحقيقي للعنوان.

المترجم

الفصل الأول

1

لحية السائق كانت مدببة. شعره المغطى بقبعة مخرّمة كان ينتهي بذيل معقود بشريط أبيض. خمّنت أنه قد يكون من «السيخ»، ذلك أن الدليل السياحي الذي كان بين يديّ يصفهم بالضبط كذلك. إنه عبارة عن كتاب يحمل العنوان التالي: «الهند، دليل لازم من أجل رحلة طارئة»، كنت قد ابتعته من لندن، وقد دفعني إلى ذلك الفضول أكثر من أي شيء آخر. لم يكن يقدم سوى مجموعة من المعلومات الضحلة عن الهند. إلا أنني تنبهت مؤخراً إلى مدى الفائدة التي يمكن أن تجنى منه.

كان الرجل يقود بسرعة مفرطة، وهو شيء لم أكن معتاداً عليه. وقد دأب على قرع الزمّور بعنف خُيِّلَ إليّ أنه يكاد يمسّ السابلة، وقد رسم على شفتيه ابتسامة غامضة جعلت تثير حفيظتي. كان يغطي كفه اليسرى بقفاز أسود. وحتى هذا لم يكن ليروق لي. هدأت ثورته عندما دخلنا (ماريان درايف)، ثم ما لبث أن انخرط بسيارته في أحد الصفوف المزدحمة وقد غمرته الطمأنينة. كنا جهة البحر. أشار باليد ذات القفاز إلى النخل الممتد على الساحل ثم إلى قوس الخليج، قائلاً:

(ماريانا درايف). كنا إذاً نذهب في الاتجاه المعاكس. رد بلطف:

ـ إن الفندق الذي أشرتَ إليه يقع في حي بائس، حتى السوق هنا ذو مستوى وضيع، وفي الغالب ينتهي السياح الذين يؤمون بومباي للمرة الأولى إلى أماكن ليست محمودة. سوف أقودك إلى فندق يليق بسيد مثلك.

بصق من النافذة وهو يومئ إليّ غامزاً، ثم قال مختتماً:

ـ حتى السوق هناك من الدرجة الممتازة.

رسم ابتسامة لزجة على شفتيه، كانت تنطوي على غموض كبير، ولم يكن هذا ليُدخل الراحة إلى قلبي. قلت:

ـ توقف هنا، وعلى الفور.

استدار نحوي وقال وهو يحدجني بنظرة منكسرة:

ـ ولكن لايمكن الوقوف هنا، إن المكان جد مزدحم.

ـ سيان عندي، سوف أترجل.

قلت هذا، ثم فتحت الباب وأنا أضغط بيدي عليه بقوة.

شدّ الفرامل بعنف. توقف، ثم ما لبث أن أخذ يرتل نوعاً من الابتهالات بلغة لابد أن تكون (المراثي(*))، وقد بدت عليه أمارات الغضب. بل كان مفعماً بالسخط والغضب وأظن أن الكلمات التي تَفوّه بها لم تكن لطيفة أبداً، لكن

من المتشردين على السور المحيط. كان ثمة صبية يبيعون سقط المتاع، متسولون، صف من العربات المزودة بموتورات. قفزت داخل إحداها؛ كانت صفراء اللون وقد أُسندت إلى جانبها دراجة نارية. أشرت للسائق إلى وجهتي. ضغط بقدمه فاندفع الغاز وغاص في الزحام.

كان حي الأقفاص أسوأ مما تصورت. كنت قد تعرفت إليه عبر بعض الصور التي كان قد التقطها مصور شهير. وكنت أحسبني تزودت بعدة كافية لرؤية بؤس البشرية إلا أن الصور تضيق أمام مايمكن مشاهدته هنا. إنه لشيء مختلف أشد الاختلاف ذاك الذي تشاهده دون أية زخرفة. كما كان لهذا المشهد رائحة نفاذة، بل قُلْ إنه متعدد الروائح.

أزف الغسق بينما كنت ألج الحي، ثم ما لبث الظلام الدامس أن حلَّ، تماماً كما يحدث عادة في المناطق الإستوائية. كانت أبنية حي الأقفاص قد شيدت في معظمها من الخشب وقصب الحصير. تقطن العاهرات أكواخاً حقيرة مبعثرة، وقد أطللن برؤوسهن عبر فتحات ضيقة. بعض هذه الأكواخ يكبر بقليل أكواخ الحرس. ثم كان ثمة أركان ذات ستائر هي أقرب إلى الخِرَق البالية. لا بدّ أنها متاجر، أو لعلها ذات وظائف تجارية مختلفة. كانت مضاءة بفوانيس وقد تكوم حشد من الناس أمامها، لكن فندق (كاجوراهو) كان مزداناً بلوحة صغيرة مضاءة. كان يقع في زاوية أحد الشوارع حيث يمكن مشاهدة بعض الأبنية الحجرية هناك أيضاً. ولكن البهو، إن أمكن تسميته كذلك، كان

قدمت لي اللائحة كي أقوم بوضع خاتمي.

- مع حمام أم بدون حمام؟!..

تساءلتْ وهي تفصّل لي الأسعار.

أخذت غرفة ذات حمام، وقد بدت لي نبرة البوابة قريبة جداً من الأمريكية، لكني لم أدقق في الأمر ملياً. قادتني نحو المكان وهي تعطيني المفتاح. حمالة المفاتيح كانت من السيلولون الشفاف وقد نُقِشت عليها علامة الفندق.

تساءلتْ:

- هل ترغب في تناول العشاء؟

كانت تحدجني بريبة، وقد استطعت أن أستنتج بأن المكان ليس مما اعتاد الأوروبيون ارتياده. إنها بالتأكيد تسائل نفسها عن سر وجودي هنا، حاملاً حقيبة صغيرة، مبرقاً إليها من المطار. قلت بأن نعم. لم يكن الأمر يشدني كثيراً، لكني كنت ضاوياً من الجوع. ثم إنني أحسست بأن الوقت قد لايكون مناسباً للقيام بجولة في أنحاء الحي.

قالت:

- تغلق صالة الطعام في الثامنة. بعد ذلك نقدم كل شيء في الغُرف.

ماتزال البوابة ثاوية في مكانها، وقد بدت منشغلة برصف مجموعة من الأحجار الدقيقة الملونة على إحدى المرايا. في ركن يجاور مدخل الفندق جلس شابان لهما سحنة غامقة. كانا يرتديان زياً غريباً، سروالين من نوع (أقدام الفيل). يبدو أنهما لم يكونا قد تنبها لوجودي بعد. لكن الكرب تسلل إليّ بغتة. انتصبتُ أمام المنضدة وانتظرت أن تبادرني هي بالكلام. تكلمت وراحت تعدّ لي أرقاماً. الصوت أجوف وضامر. لم أعِ كنه الموضوع تماماً، فرجوتها أن تعيد ماقالته. كل هذا كان لائحة أسعار، وقد استطعت أن أميز أحد عشر رقماً، هي الأرقام الأولى والأخيرة. من ثلاث عشرة سنة إلى خمس عشرة سنة بثلاثمئة روبية، ثم بعد سن الخمسين بخمس روبيات. ثم اختتمت حديثها قائلة:

ـ النساء في الصالة في الطابق الأول.

تناولت الرسالة من جيبي ثم أريتها التوقيع. كنت أحفظ الاسم عن ظهر قلب، لكنني فضلت أن أريها الإسم مكتوباً تجنباً لأي لبس ممكن. قلت:

ـ فيمالاسار. أريد فتاة تدعى فيمالاسار.

ألقت نظرة سريعة نحو الشابين الجالسين على الأريكة، ثم قالت:

ـ فيمالاسار! إنها لم تعد تعمل هنا. لقد انصرفت منذ أمد.

تساءلت:

لحسن الحظ وجدت في حقيبتي ورقتين من فئة العشرين دولاراً. دسستهما لها بين الأحجار الملونة ثم تناولت حقيبتي. وبينما كنت أصعد السلم، داهمني شعور مفاجئ بالخوف، لذا هتفت بصوت مرتفع:

ـ إن سفارة بلادي على علم بوجودي هنا.

كانت أمارات النظافة بادية على الغرفة المدهونة بلون أخضر قانٍ وقد أُلصقت على الجدران صور لتماثيل عارية لـ كهاجوراهو. هذا مابدا لي للوهلة الأولى، ولم تكن لدي أدنى رغبة في التأكد من حقيقة الأمر. السرير منخفض جداً، وقد وُضِعت إلى جانبه أريكة رثة الهيئة، ثم كُوّمت وسائد ملونة فوقه، وكان ثمة مكتب صغير رُكِنت عليه أشياء مختلفة.

نزعت ملابسي وأنا أتناول ملابس أخرى نظيفة. كان الحمام عبارة عن ركن صغير مدهون، وقد ألصقت على بابه صورة لشقراء تمتطي علبة كوكاكولا. اللوحة مائلة إلى الصفرة وقد اتسخت بفعل الحشرات. كان شعر الشقراء مُسرّحاً على طريقة مارلين مونرو من الخمسينيات، وهذا ماكان يزيد من طابع التنافر فيها. كان الدوش بلا ساعد، إنه ببساطة عبارة عن أنبوب ذي فوهة، حيث ينحدر الماء من الأعلى حتى الرأس. شعرت بأن الاغتسال سوف يكون أمثل مايمكن أن تطيب له النفس في تلك اللحظة، فقد كنت مثقلاً بوعثاء ثماني ساعات من السفر بالطائرة، ثم ثلاث ساعات من المكوث منتظراً في المطار، ثم الرحلة إلى بومباي.

ـ مساء الخير يا سيدي. أنا فيمالاسار.

ظلت متسمرة في وسط الغرفة. العينان خافضتان والساعدان مُسبلان كما لو كنت أهم بامتحانها. قلت:

ـ أنا صديق كسافيير.

رفعت عينيها، فقرأت دهشة عظيمة في وجهها. كنت قد أعددت رسالتها راكناً إياها فوق المكتب. ألقت عليها نظرة ثم انخرطت في البكاء. تساءلتُ:

ـ كيف انتهى إلى مكان كهذا؟ ما الذي كان يفعله؟ أين هو الآن؟

أسلمت نفسها للنحيب، ففطنت إلى أني قد أكون أفرطت في دفق سيل الأسئلة ذاك.

قلت:

ـ إهدئي.

قالت:

ـ سوف يغضب كثيراً حين يعلم أني كتبت لك.

ـ ولماذا كتبتِ لي؟!..

أجابت:

ـ ولكن ماذا كان يعمل؟!

ردت:

ـ كان يمتهن التجارة. لست أدري بالضبط، إنه لم يقل لي شيئاً البتة، لم يعد طيباً أبداً كما كان.

ـ أي نوع من التجارة؟!..

ردت:

ـ لست أدري. لم يكن يروي لي أي شيء. كان يصمت في بعض الأحيان لأيام عديدة، ثم مايلبث أن ينتابه الجزع على حين غرةٍ فينفجر غاضباً.

ـ متى جاء إلى هنا؟

أجابت:

ـ السنة الفائتة. كان قادماً من جوا. كان يتاجر معهم، ثم مالبث أن اعتراه المرض.

ـ من هم؟!..

ردت:

ـ أولئك. إنهم من جوا، من جوا. لست أدري.

جلست على الأريكة بجانب السرير. لم تعد تبكي الآن. تبدو أنها أميل إلى الهدوء. قالت:

خفضت رأسها. تناوبها البكاء مرة أخرى، ثم رددت:

ـ أولئك من جوا، من جوا، لست أدري. لقد كان مريضاً.

صمتت برهة. سحبت نفساً عميقاً، ثم قالت:

ـ أحياناً، كان يبدو غير مبالٍ بأي شيء حتى بي أنا، والشيء الوحيد الذي كان يهتم به هو رسائل ماداراس. لكنه سرعان مايعود في اليوم التالي إلى ماكان يعاني منه.

ـ أية رسائل؟

ـ رسائل ماداراس.

ردت بسذاجة وكأنها تعطي معلومة مفروغاً منها، فعدت أُلّحّ:

ـ ولكن مِنْ مَنْ؟ من كان يكتبها إليه؟

قالت:

ـ لست أدري، إنها جمعية، لاأتذكر. إنه لم يجعلني أقرؤها أبداً.

سألت مرة أخرى:

ـ وهل كان يجيب على تلك الرسائل؟

ـ أجابت فيمالاسار وهي ساهمة:

سيدي. صمتت برهة أخرى ثم تابعت:

ـ لقد كان طيباً صافي الطوية لكنه حزين السجية.

كانت قد تركت كفيها متشابكين. أصابعها طويلة وجميلة، لكنها سرعان ماحدجتني بنظرة خاطفة كما لو أنها تذكرت بغتة شيئاً ما، هتفت:

ـ الجمعية الثيوصوفية(*).

بدا وكأنما ندّت عنها ابتسامة للمرة الأولى. قلت:

ـ إنصتي. احكي لي بهدوء كل مايمكن أن تتذكريه، كل مايمكن أن تقوليه لي.

تناولت قدحاً آخر، جرعته ثم شرعت تروي. كان حديثاً طويلاً مسهباً مملوءاً بالتفاصيل. حدثتني عن قصتهما، عن شوارع بومباي، عن رحلات إلى باسيين والفانتا أثناء العطلات ثم إلى حديقة فكتوريا أوان الظهر وهما مستلقيان على المروج، عن السباحة في شاطئ تشاوبتي عندما تبدأ قطرات المونسون الأولى في الهطل. عرفتْ كيف تعلم كساقيير الضحك، ما الذي كان يثير الضحك في نفسه، كيف كان مأخوذاً بمرأى الشمس وهي تأفل خلف بحر

(*) الجمعية الثيوصوفية: هي جمعية دينية تأسست عام 1875 من قِبَل (إلنا تيروفنا بلافاتسكي) وهي تقول بإمكانية معرفة مباشرة للألوهية. هذه النظرية تتقاطع مع

ـ لقد كتب كسافيير أشياء كثيرة، ثم في أحد الأيام أحرق كل شيء. لقد كان هنا في هذا الفندق. تناول طستاً من النحاس وضع فيه كل شيء ثم أحرقه.

تساءلت:

ـ لماذا؟

ردت:

ـ لقد كان مريضاً. كان الحزن قدره المحتوم.

كان الليل ـ لابد ـ آخذاً بالأفول عندما انصرفت فيمالا. لم أنظر إلى ساعتي وإنما أسدلت الستائر على النافذة ثم استلقيت على السرير. وقبل أن تغشاني الإغفاءة، تناهى إلى سمعي صراخ بعيد. لعلّه صلاة، أو ربّما ابتهال إلى اليوم الجديد الذي بدأ ضياؤه يبزغ.

2

ـ ما اسمه؟

أجبت:

ـ كساڤيير

تساءل:

ـ هل هو داعية؟

ثم أردف:

ـ إنه بالتأكيد ليس إنكليزياً، أليس كذلك؟

قلت:

ـ كلا، إنه برتغالي. ثم إنه ليس داعية أو مبشراً. إنه برتغالي مفقود في الهند وحسب.

هزّ الطبيب رأسه موافقاً. جعلت باروكته اللّمّاعة تنزاح قليلاً إثر كل حركة كقلنسوة من المطاط. قال:

ـ في الهند يضيع الكثيرون، إنه بلد مخلوق من أجل شيء كهذا.

وافقت ثم رحتُ أحملق فيه وراح هو الآخر يرمقني بنظرات خالية من أي اهتمام وكأن كل شيء كان مجرد مصادفة، أو أن الأشياء هكذا لأنها

من چوتا. هذا على الأقل ما كان يدعيه.

أومأ الطبيب وكأنه أراد الإيحاء بأن هذا كافٍ. بالطبع لم يكن ينوي قول شيء كهذا. قلت:

ـ آمل أن يكون لديكم أرشيف.!

ابتسم ابتسامة جزئية، بل ومؤثرة. كانت أسنانه ناصعة البياض وإن يكن القسم العلوي منها ناقصاً. تمتم:

ـ أرشيف..

كانت نبرته متوترة، تلوح القسوة فيها. حدجني بنظرة صارمة، لعلها كانت تنطوي على شيء من المقت، ثم قال بجلافة:

ـ هذا مشفى بومباي. دع جانباً كل هذه التسميات الأوروبية، إنها مجرد ترف متغطرس.

صمَتُّ، وظل هو أيضاً غارقاً في السكون. أخرج علبة تبغ من جيب قميصه ثم تناول سيجارة منها.

خلف مكتبه عُلِّقتْ على الجدار ساعة كبيرة لم تكن تعمل. كانت تشير إلى السابعة. وكأنه قرأ على الفور أفكاري فقال:

ـ إنها معطلة منذ أمد. على كل حال، إنه منتصف الليل.

قلت:

- هل كان صديقاً لك؟

أجبت:

- إلى حد ما، يوماً ما.

- متى كان يتلقى العلاج في المشفى؟

- أواخر المونسون(*) منذ حوالي سنة حسبما أعتقد.

قال:

- منذ سنة! إن هذا كثير.

ثم أردف:

- المونسون فصل رديء ويأتي الكثيرون هنا في حالات مشابهة.

أجبت:

- يمكنني تخيل ذلك.

دسّ رأسه بين يديه كما لو كان يُطرق مفكراً، أو لعله كان جدّ متعبٍ.

قال:

- يصعب عليك تخيل ذلك. هل بحوزتك صورة فوتوغرافية له؟

كان سؤالاً بسيطاً وعملياً، لكني تعثرت في الإجابة، ذلك أني كنت أحس أنا أيضاً بأهمية الذاكرة، وأدرك في الوقت عينه عدم كفايتها. حقيقي، ماالذي يمكنني تخيله من وجهه؟ لا.. لم أكن أملك صورة له. لا أملك سوى

قال:

ـ إنه وصف ناقص. لكن لايهم. إني لاأذكر كائناً من كان باسم جاناتا بينتو على الأقل في هذه اللحظة.

كنا نقبع في غرفة رمادية اللون عارية، في عمقها حوض من الإسمنت ملتصقٌ بالجدار كأنه مغسلة. كان مكتظاً بالأوراق، وبجانبه طاولة طويلة تناثرت الأوراق عليها أيضاً. نهض الطبيب وتوجه إلى قلب الغرفة. بدا لي كأنه يعرج. راح يُقلِّب الأوراق الموزعة فوق الطاولة. من بعيد كانت تبدو لي أشبه بأوراق دفتر، أو قصاصات من ورق بني، أوراق صناديق.

قال:

ـ هذا هو أرشيفي، إنها كلها مجرد أسماء.

ظللت ثاوياً قرب الطاولة الصغيرة أجيل الطرف نحو هذه الأشياء التي انهمك فيها. كان ثمة كرة من الكريستال في داخلها صورة لجسر لندن، وصورة مؤطرة لمنزل يشبه (الشالت السويسري) كل هذا بدا لي غير معقول. عبر إحدى نوافذ الشالت كان يظهر وجه نسائي، لكن الصورة كانت كامدة وغير مزينة.

تناهي إليّ سؤاله من أعماق الغرفة:

ـ إنه ليس مدمن مخدرات أليس كذلك؟ ذلك أننا لانستقبل المدمنين هنا.

تساءل:

- وأنت!، هل تقيم هناك أيضاً؟

- لقد أمضيت الليلة الماضية هناك، لكني سوف أغادر غداً. أحاول أن لأمكث في فندق واحد لأكثر من ليلة طالما كان هذا ممكناً.

تساءل مرتاباً:

- لمَ؟

كان يحمل بين ذراعيه حزمة من الأوراق، مُرسلاً نظراته إليّ من تحت نظارتيه.

قلت:

- هكذا، يروق لي أن أبدل كل ليلة. كل مابحوزتي هو هذه الحقيبة الصغيرة.

- وهل استقر رأيك على مكان معين بالنسبة لغدٍ؟!

قلت:

- ليس بعد. أظنني راغباً بفندق مريح أكثر، لنقل أكثر ترفاً.

قال:

- تستطيع الذهاب إلى تاج محل. إنه أفخم فندق في آسيا كلها.

ـ تراب.

تساءلت:

ـ الأوراق!...

أخفض عينيه، ثم استدار نحوي قائلاً:

ـ الأوراق، الناس.

تناهى إلى مسامعنا من بعيد دويّ ثقيل كما لو كان صفيحةً من الحديد انزلقت على السلم. قال وهو يترك الأوراق تسقط من يديه:

ـ أعتقد أنه من غير المجدي البحث عنه بين هذه الأسماء.

نهضت بتلقائية. خمّنت أنه آن الأوان لكي أرحل، أو أن هذا هو ما رمى إليه. لكنه بدا غير منتبه إلى ذلك. توجه صوب خزانة معدنية صغيرة كان يبدو أنها قد دُهنت باللون الأبيض منذ أمد طويل. تناول بعض الأدوية ودسّها في جيوب قميصه. ظننت أنه يفعل ذلك اعتباطاً ودون أن يختار منها شيئاً محدداً. قال:

ـ أعتقد أن الطريقة المثلى للعثور عليه تكمن في الذهاب بحثاً عنه. لقد أزف أوان قيامي بجولتي المعتادة، ويمكنك مصاحبتي إن رغبت بذلك.

توجه صوب الباب. فتحه قائلاً:

ـ سوف تكون جولتي هذه الليلة أطول من المعتاد، ولكن من الجائز أنك

ثمة عارضة كُتب عليها باللغة الهندية. بعض الحروف كانت قد سقطت تاركة فراغات بيضاء بين الأحرف الحُمر.

قال:

ـ لاتمس أي شيء ولاتقترب من المرضى. أنتم الأوربيون مرهفون جداً.
كان الممر طويلاً جداً، مدهوناً بلون سماوي كئيب، وقد اسودت أرضيته بسبب الصراصير التي راحت تتقافز تحت أحذيتنا، وكنا نجاهد كيلا ندوسها.

قال الطبيب:

ـ سوف نقضي عليها، لكنها لن تلبث أن تتكاثر بعد شهر. لقد غدت الجدران آيلة للسقوط، وقد يتوجب علينا أن نهدم المستشفى.

كان الممر يفضي إلى رواق آخر شبيه بالأول لكنه أضيق وخال من النور وتكلله الستائر.

ـ ماذا كان يشتغل السيد جاناتابنيتو؟

سألني وهو يزيح الستارة. كدت أجيب، مترجماً فورياً، وهو مااعتقدت أنه يجب أن أقوله، لكني قلت:

ـ كان يكتب القصص.

تمتم:

قال الطبيب:

ـ لكنه قام بها.

ـ قلت:

ـ في الواقع. يبدو أن الأمر بالفعل كذلك.

ترك الطبيب الستارة تسقط خلفنا. قال:

ـ هنا في الداخل. يوجد مئة شخص. أخشى أن لايكون المنظر لطيفاً بالنسبة لك. إنهم أولئك الذين مضى على وجودهم هنا ردح من الزمن. من الجائز أن يكون صديقك واحداً منهم. وإن كنت أميل إلى استبعاد أمر كهذا.

تبعته. فولجنا أكبر غرفة رأيتها في حياتي. كانت أشبه بـ قاعة رحبة الأرجاء وعلى طول الجدران كان ثمة ثلاثة صفوف من الأسرّة. مضاجع بائسة. من أعلى السقف تتدلى مصابيح باهتة الأضواء. توقفت برهة لأن الرائحة كانت جد قوية. بجانب المدخل كان يقرفص رجلان يرتديان أسمالاً بالية. وما أن لمحانا حتى ابتعدا.

قال الطبيب:

ـ لايمكن لمسهما. إنهما مكلّفان بحاجات المرضى الجسمانية. لايوجد من يؤدي هذه الوظيفة غيرهما. هكذا هي الهند.

- إنه (مسكين) تمت التضحية بأعضائه التناسلية إلى الله. ذلك أنه كان يجتذب النساء العاقرات. لكنه لم يحدث له أن أنجب في حياته. تنحى مبتعداً. فتبعته. كان يتوقف عند كل سرير. وكنت أقف مبتعداً قليلاً وأنا أرقب وجه المريض. كان يطيل الوقوف عند بعض المرضى. يتمتم بضع كلمات. يوزع الأدوية. عند البعض الآخر. وهو يمر مسرعاً. جاسّاً جباههم وحسب. كانت الجدران ملطخة باللون الأحمر. بسبب ما أحدثه بصق نبات (التّنبول) الممضوغ. كان الحر خانقاً. أو لعل الرائحة كانت ثقيلة ومن ثم تثير هذا الشعور بالاختناق. حتى المراوح في السقف كانت معطلة.

فيما بعد. عاد الطبيب أدراجه. فتبعته غارقاً في الصمت. قال:

- إنه غير موجود بين هؤلاء.

أسدل الستارة من جديد على الرواق بِرقّة وتقدمني.

قلت:

- إن الحر لايطاق هنا. ومع ذلك فالمراوح متوقفة لاتعمل. إن هذا غير معقول.

ردّ:

- في بومباي ينخفض الضغط جداً في الليل.

- ومع ذلك يوجد لديكم مفاعل نووي في ترومباي. لقد شاهدت المدخنة من على الشاطئ.

سألته:

ـ هل تلقيت دراستك هنا؟

توقف. وحدجني بنظرة. خلت أني ألمح في عينيه بريقاً من الحنين، قال:

ـ لقد درست في لندن. ثم تخصصت في زيوريخ.

سحب علبة تبغهِ. تناول سيجارة منها. وتابع يقول:

ـ إنه تخصص غير معقول بالنسبة للهند. أنا أخصائي في أمراض القلب ولكن هنا لايوجد مرضى قلب. فقط أنتم في أوروبا تموتون بالسكتة القلبية

تساءلت:

ـ ومن أي شيء يموت الناس هنا؟

ـ كل ماليس له صلة بأمراض القلب. سفلس. سل. جذام. تيفوئيد تعفن الدم. كوليرا. التهاب السحايا. بلاغرا. دفتريا. وأشياء أخرى. ولكني شغوف بدراسة القلب. تأسرني دراسة هذه العضلة التي تتحكم في حياتنا. هكذا.

جعل يحرك كفه وهو يفتح قبضته ويضمها.

ـ من الجائز أني كنت أعتقد بإمكانية اكتشاف شيء مافي داخلها. كان الممر ينتهي بباحة صغيرة مغطاة. وكان ثمة ممشى منخفض مرصوف بالفخار.

سألته:

ـ هل أنت مؤمن؟

قال:

ـ ولم يشكون؟

أجاب:

ـ كل مايمكن أن يخطر على بالك. ولكن، قد يكون من الأفضل أن تغادر الآن.

قلت:

ـ هذا ما أعتقده أنا أيضاً.

قال:

ـ سوف أصطحبك.

ـ كلا. لاتثقل على نفسك. أرجوك. سوف أجد طريقي عبر هذه البوابة بجانب السور. أعتقد أني في الطريق الصحيح.

قال:

ـ إني أدعى جانشن. إنه الإله السعيد الذي يحمل وجه فيل.

بدوري قدمت له نفسي قبل أن أبتعد. كانت بوابة الخروج على بعد خطوات هناك. خلف دغلة الياسمين. كانت مشرعة. ولما استدرت خلفي كان لايزال يتحدث. قال:

ـ هل يتوجب عليّ إبلاغه بشيء ما إذا ما صدف والتقيت به؟

قلت:

صعدت قائلاً:

ـ تاج محل.

3

كانت الغربان هي الأحد عشر قاطناً في بومباي، والتي لم تكن تأبه لـ (حق الدخول) إلى تاج محل، تحط ببطء على شرفة الإنتركونتنتال وتركن على نوافذ الـ Moghul للبناء العتيق. في حديقته، تندس بين أغصان المنجا، تتقافز فوق البساط العشبي الذي يطوق المسبح، تقتنص الماء مستسقية إياه من أطرافه. وقد تتجرأ على الذهاب إلى نقر قشور البرتقال المغموسة في أكواب (المارتيني) إذا لم يأت حارس حازم، بلباسه الرسمي، ويطردها بقضيب الكريكت. كأنها لعبة غير معقولة يقودها مخرج متهور. يجب الاحتراس من الغربان، ذلك أن مناقيرها قذرة للغاية. وقد ارتأى المجلس البلدي إغلاق مخازن المياه الضخمة لأنه سبق وقامت بعض الطيور الهائمة في (دائرة الحياة) بالتهام أجزاء من الجثث التي يُسجّيها الـ (بارزي)[*] فوق أبراج الصمت (ثمة العديد من هذه الجثث في منطقة مالابارهيل). كما حدث أن ألقت نتفاً من هذه الجثث في الماء. لكن اللجوء إلى هذه الأساليب من هذا القبيل لم يحل المشكلة أبداً، ذلك أن هناك مشكلة الجرذان والحشرات، ثم تسرب مياه المجاري. من الأفضل الامتناع عن شرب الماء في بومباي. الأمر مختلف في تاج محل، حيث يتمتع بخزانات خاصة به، وقد اشتهرت مياهه بنقائها، ذلك أن تاج محل ليس فندقاً، بل هو إضافة إلى الثمانمئة غرفة التي يضمها، يعدّ مدينة داخل مدينة.

بري صغير. وقد بذلت جهود دائبة للعثور على غرفة لي في جناح المبنى ذي الأثاث التقليدي، والمُطل على (بوابة الهند). للوهلة الأولى كدت أصرح لهم بأنني هنا كي أرقد بسكينة وحسب، وليس من أجل غايات جمالية، وانهم كانوا قادرين على توفير ذلك لي في غرفة ذات أثاث عصري. حتى ناطحة السحاب في الإنتركونتنتال يمكنها أن تكون ملائمة لي. وقد بدا لي فيما بعد أمراً محرجاً الإيحاء لهم بشيء من هذا القبيل. لكني على كل حال رفضت ارتداء (لباس الطواويس) وقد أوضحت لهم أني أريد الحفاظ على الأسلوب الذي أرتضيه لنفسي هنا. كانت الغرفة فخمة للغاية، وقد سبقتني إليها حقيبتي الصغيرة عبر طرق سحرية، وجدتها مركونة على كرسي. كان المغطس مملوءاً بالماء والصابون. انغمست في داخله، ثم جففت جسدي بمنشفة قطنية. كانت النوافذ تطل على بحر عُمان، وكان النهار صافياً تقريباً، على حين راح النور الأحمر يصبغ الشاطئ. أسفل تاج محل تبدو الحياة زاخرة. الستائر المخملية كانت تنساب بحلاوة وطراوة، ثقيلة مثل ستائر المسرح. أسدلتها على البلد، فغرقت الغرفة في العتمة والسكون. طنين المراوح الضخمة يأتي متثاقلاً ومريحاً وقد راح يهدهدني. فكرت بأن هذا مجرد ترف زائد، ذلك أن جو الغرفة كان منعشاً. حلّقت فوراً إلى محراب فوق إحدى جبال المتوسط. كان المحراب أبيض اللون، وكان القيظ لاذعاً، وكنا أسرى الجوع. صار كسافيير يقهقه وهو يتناول السندويتشات والنبيذ المنعش من داخل الكيس. حتى إيزابيل انخرطت في الضحك، على حين بسطت ماجدة بطانية فوق العشب. وبعيداً، أسفل

أيها السيدات والسادة، قليل من الإنتباه؛ معنا البلبل الإيطالي. كنت قد استمرأت اللعبة، ورحت أدندن بأغان نابوليتانية قديمة، مقلداً المطربين القدماء وأغنيات الماضي الخالي، بينما راح الجميع يصفق ضاحكاً. كنت أمثل دور روكس وقد تلبّست هذا. إنه المقطع الأول من روكسينول وهي كلمة تعني بلبلاً باللغة البرتغالية. كانت مناداتي بهذا الإسم الأجنبي ممتعة للغاية، ولم تكن أبداً أمراً يثير أي نوع من أنواع الغضب. ثم جاءت الأصياف القادمة. كانت ماجدة تبكي. فكرت. لماذا؟ هل كان هذا صحيحاً؟ وإيزابيل! وأوهامها!. ولما بدأت تلك الذكريات تلبس أُطراً ثقيلة الوطأة، وغدت واضحة وكأنها تعرض من جهاز على الجدار، نهضت وغادرت الغرفة.

إنها السادسة مساءً. الوقت مبكر جداً من أجل العشاء ومتأخر جداً بالنسبة للإفطار. ولكن في تاج محل، وحسبما يقول دليلي السياحي، وبفضل مطاعمه الأربعة، يمكن تناول الطعام في أية ساعة كانت. في الطابق الأخير للـ (أبوللو بوند) كان الـ (الموعد). كانت الأسعار باهظة للغاية، لكنه كان لطيفاً جداً. توقفت قليلاً في (بار أبوللو). اخترت طاولة ملاصقة لزجاج الشرفة، متأملاً أضواء المساء الأولى. كان شاطئ البحر إكليلاً من الأنوار. تناولت كأسين من الجين تونيك، فتسللت النشوة والراحة إلى داخل نفسي. بدأت أكتب رسالة إلى إيزابيل. كتبت طويلاً، هكذا وبحماس متزايد، ودونما تفكير. حدثتها عن الأيام الماضية. حدثتها عن كل شيء، عن رحلتي، وكيف أن

[illegible]
أن يفعل أمير متنكر بزي فقير. وما إن انتهيت من تناوله حتى كان الليل قد هبط. بدأت الحياة تدب أكثر فأكثر في تاج محل. الأضواء تتلألأ، وعند حافة المسبح، وقف الخدم بأزيائهم الرسمية متأهبين لطرد الغربان. جلست فوق أريكة وسط هذه القاعة الهائلة الاتساع، كأنها ملعب لكرة القدم، ثم رحت أحدّق في هذه الأبهة.

لا أذكر بالضبط من القائل، إن التحديق، مأخوذاً كنشاط صرف، ينطوي في أغلب الأحيان على نوع من السادية. حاولت تذكر الاسم فلم أفلح، ولكن خُيّل إليّ أن هذه المقولة قد تنطوي على شيء من الحقيقة. وهكذا أخذت تنمو في داخلي باطراد مستمر الرغبة في التحديق بقوة أكبر، وأنا أحس إحساساً كاملاً بأني مجرد عينين تنظران. في حين كنت أحس نفسي وكأنها في مكان آخر، دون أن أدري بالضبط أين. كنت أنظر إلى النساء، المجوهرات، العمائم، الطرابيش، الخمور، أذيال الأثواب، فساتين السهرة، المسلمين والأثرياء الأمريكان، ملوك البترول، الخدم الصامتين بملابسهم ناصعة البياض. كنت أنصت إلى القهقهات. جمل مفهومة أو غير مفهومة، همسات، خشخشات. لم يكن هذا كله ليتوقف طوال الليل، وحتى الشفق. وما ان بدأت الأصوات تخمد و الأضواء تخفت حتى أسندت رأسي إلى وسادة الأريكة وغرقت في النوم. لم أغفُ مدة طويلة لأن الزورق الأول المنطلق إلى (الإلفانتة)، بالضبط مقابل تاج محل، كان يشير إلى السابعة. وعلى هذا الزورق كان ثمة يابانيان في مقتبل العمر، يحملان آلة تصوير، وكنت أنا أيضاً

4

قال الرجل الذي كان يتهيأ للإضطجاع في سريره المجاور لسريري:

ـ ما الذي نفعله، بالضبط، ونحن محشورون داخل هذه الأجساد.

لم تكن نبرته استفهامية. قد لا يكون هذا سؤالاً بل ربما مجرد تأمل بطريقته الخاصة. على كل كان الإعياء سينتابني حتماً قبل أن أفلح في الإجابة على سؤال كهذا. كانت الأنوار المنبعثة من أرصفة المحطة صفراء اللون، وهي تلقي على الجدران المهترئة ظلاً ناحلاً، راح يتراقص بخفة في أرجاء الغرفة. كانت حركته هادئة ورشيقة، وقد بدا لي وهو يتحرك بهذه الطريقة أشبه بالهنود. من بعيد، تناهى إلينا صوت بطيء رتيب النغمة. لعلّه صلاة، لعلّه يعبر عن شكوى يائسة، تماماً كتلك الشكاوي التي لاتحمل في داخلها سوى التعبير عن نفسها ودون أن تطلب شيئاً. لقد كان من المستحيل عليّ أن أفهم منه شيئاً. هكذا هي الهند، عالم من أنغام كتيمة، غير مميزة، وغير محددة.

قلت:

ـ من الجائز أننا نسافر في داخلها.

كان قد مرّ ـ ولابد ـ بعض الوقت على سؤاله. تُهْتُ خلاله في تأملاتٍ نائية. ومن غير المستبعد أن تكون قد تخللته دقائق من النوم. لقد كنت جد

إياها.

فوق الباب كان ثمة ضوء صغير وأزرق كذلك الذي نجده في عربات القطارات الليلية. وقد بدا مُخضرّاً وخُضّب بالضوء الأصفر القادم من النافذة كأنه حوض أسماك. حدقت فيه. تحت هذا الضوء الأخضر، والذي بدا لي حزيناً، كنت أَلحَظُ رسماً لوجه مستطيل، ذي أنف نسري الشكل بعض الشيء، ويدين فوق الصدر.

قلت متسائلاً:

ـ هل تعرف مانتينيا؟

كان سؤالي غير معقول، لكنه ليس أكثر استحالة من سؤاله على أية حال.

قال:

ـ لا. هل هو هندي؟

ـ قلت:

ـ إنه إيطالي

قال:

ـ إني لاأعرف سوى إنكليز. جميع الأحد عشر أوروبياً الذين أعرفهم هم إنكليز. تصاعد الأنين القادم من بعيد شيئاً فشيئاً. إنه الآن أكثر حدة. وقد خيّل إلي أنه لا

ـ كلا، كلا. إني أعني هذا الصوت القادم من الخارج. إن مانتينيا فنّان، ولم يصدف أن تعارفنا، فقد مات منذ قرون.

تنفس الرجل بعمق. كان يرتدي الأبيض، لكنه لم يكن مسلماً. هذا ماخمّنته، قال:

ـ لقد سبق لي أن كنت في إنكلترا، وكنت أجيد الفرنسية أيضاً. يمكننا أن نتفاهم بالفرنسية لو رغبت بذلك.

كانت نبرته محايدة تماماً، كما لو كان يدلي بتصريح أمام أحد المكاتب الحكومية. ولست أدري لماذا أثار هذا قلقي!.

قال بعد ثوان:

ـ إنه جانشي(*). يبكي شر العالم.

قلت:

ـ آه. حسناً.

لقد أدركت أنه يعني ذلك الأنين القادم من الخارج. قال، وكانت نبرته أشبه بدليل سياحي يدلي ببعض الشروحات:

ـ في بومباي، لايوجد الكثير من الجانشيين. في الجنوب نعم. إنهم جد كثيرين هناك. إنه دين جميل جداً، لكنه ساذج أيضاً.

رد:

ـ أنا جانشي.

دقت ساعة المحطة منتصف الليل، فخرست الشكوى البعيدة بغتة. كأنها كانت تنتظر دقات الساعة. قال الرجل:

ـ إنه يوم آخر. لقد بدأ يوم آخر اعتباراً من هذه اللحظة.

بقيت غارقاً في الصمت. لم يكن تصريحه هذا ليترك أي مجال للحوار. مرت بضع دقائق، وقد بدا أن الأضواء المنبعثة من أرصفة المحطة أخذت تخبو... كان تنفس صديقي قد غدا بطيئاً كأنه كان نائماً. وعندما عاد يتكلم، بدت نبرته متوقدة.

قال:

ـ إني ذاهب إلى فارانازي. ماهي وجهتك أنت؟!

أجبت:

ـ إلى مدراس.

ردد:

ـ مدراس. نعم. نعم.

ـ أريد أن أشهد ذلك المكان الذي قيل إن القديس توماس قد شُنق فيه.

لقد بنى البرتغاليون هناك كنيسة في القرن السادس عشر، ولست أدري ما الذي تبقى منها الآن بعد ذلك

قاطعني رفيقي:

ـ أنت كاثوليكي على ما أظن!.

أجبت:

كل الأوربيين هم كاثوليك بطريقة أو بأخرى. أو بالأصح كلهم مسيحيون، إنه نفس الشيء على أية حال.

جعل الرجل يردد كلماتي كما لو كان يتذوق طعمها. كان يتحدث بإنكليزية أنيقة.

وكان كلامه متقطعاً، وقد أخذ ـ بالكاد ـ يلفظ حروف العطف كما يحدث عادة في الجامعات. وكنت أصغي منتبهاً بالضبط إلى هذا. قال:

ـ «في واقع الامر.. من وجهة عملية..»، كم من الفضول تثير هذه الكلمات. لقد سبق لي أن سمعتها تتردد كثيراً في إنكلترا. أنتم الأوروبيون تفرطون في استخدامها. تَأَوّبَه الصمت مرة أخرى، ثم استطال بعض الشيء. لكني حدست بأنه لم يكن قد أنجز حديثه بعد. وهاهو ذا يواصله قائلاً:

ـ لم أستطع أبداً أن أفهم ما إذا كان تشاؤماً أم تفاؤلاً. ما الذي تعتقده أنت؟

طلبت منه توضيح مقصده بجلاء أكبر فقال:

لاتعني عملياً أي شيء.

ضحك رفيقي. كانت هذه هي المرة الأولى التي يضحك فيها. قال:

ـ إنك ماهر حقاً. لقد غلبتني. ولكنك عملياً ثمّنت كلامي في الوقت عينه. ضحكت أنا أيضاً. ثم قلت لفوري:

ـ على كلٍ، الأمر في حالتي هذه ـ عملياً ـ يعني نوعاً من الخوف.

صمتنا برهة. واستأذنني رفيقي في أن يدخن. فتّشَ في حقيبة له رَكَنها إلى جانب السرير، وما لبثت رائحة التبغ أن عبقت في الغرفة بأسرها. كان يدخن نوعاً من السجائر الهندية، صغيرة وذات رائحة، وقد صُنعت من ورقة تبغ واحدة.

قال:

ـ كنت أقرأ العهد الجديد في بعض الأحايين. إنه كتاب جد غريب.

تساءلت:

ـ هل هو غريب وحسب؟

اعتراه بعض التردد. لكنه رد:

ـ إنه أيضاً مملوء بالغطرسة. إني أقول هذا بنيّة طيبة.

قلت:

ـ أخشى أني لاأفهم بشكل جيد.

ـ قطاري الذي يغادر. ثم في مدينة غريبة. هل تذهب لتعالج أنت أيضاً؟

أطفأ رفيقي سيجارته. ثم سعل سعالاً خفيفاً. وقال:

ـ إني أذهب لكي أموت. لقد بقيت لي من الحياة أيام قلائل.

أصلحت المخدة تحت رأسي. وتابع حديثه:

ـ جائز. انه من المناسب جداً أن نموت. لم يبق لنا وقت كاف للنوم فقطاري يغادر في الخامسة.

قلت:

ـ أما قطاري فإنه يغادر بعد ذلك بقليل.

قال:

ـ آه. لاتخف. سوف يأتي الخادم لإيقاظك في الوقت المناسب. ولمّا كنا قد التقينا بهذه الطريقة أظن بأننا لن نلتقي ثانية، على الأقل في صورة حقائبنا هذه، لذا فإني أتمنى لك سفراً سعيداً.

أجبت:

ـ صحبتك السلامة أنت أيضاً.

الفصل الثاني

5

يقول الدليل في يدي: إن أفضل مطاعم مدراس هو مطعم (Il Mysore Restaurante del Coromandel). وقد شعرت بفضول كبير للتحقق من صحة ذلك، فابتعت قميصاً أبيض من البوتيك الواقع في الطابق الأول، على الطريقة الهندية، ثم بنطالاً أنيقاً. صعدت إلى غرفتي، واغتسلت طويلاً، وأنا أنفض عن جسدي وعثاء السفر. كانت غرفة الكروماندل مزدانة بأثاث يعود إلى الحقبة الاستعمارية، وقد أعيد ترميمه، فغدا أنيق المظهر. كانت غرفتي خلفية تطل على فسحة يكللها اصفرار ترعرعت حوله نباتات بدائية. هي غرفة رحبة ذات سريرين عريضين غطيا بملاءتين فاخرتين جميلتين. في الداخل، قرب النافذة كان ثمة طاولة للكتابة، لها جرار أوسط وثلاث سحابات على كل جانب. اخترت الجرار الأخير الواقع إلى اليمين، لأركن فيه أوراقي محض صدفة.

أنهيت عشائي متأخراً أكثر مما كنت أود. على كل، يظل (الميسور) مفتوحاً حتى منتصف الليل. كان مطعماً ذا واجهات زجاجية تطل على المسبح. الطاولات مستديرة وقد فُصِلت عن بعضها بخيزران مدهون بالأخضر. وراح نور أزرق يشع من حواجز الإضاءة الموضوعة فوق كل طاولة. كان الجو لطيفاً. ثمة مغنٍ وقف على أرضية مغطاة بالأحمر وقد شدّ نحوه الزبائن عازفاً

الفينة والأخرى أخطاءً تاريخية؛ لكن الآخر كان، فيما يبدو، غافلاً عنها. تبدو الأحاديث التي تتاح لك فرصة اقتناصها، صدفة، مثيرة جداً للفضول. وقد كدت أعتقد بأنهما ولا بد زميلان في الجامعة. ولكن عندما أسرّ أحدهما للآخر بأنه راغب في إلغاء سفره بالطائرة إلى كولومبو، أدركت أن تعارفهما قد تم اليوم.

بينما كنت أهم بالخروج هيجتني رغبة بالتوقف قليلاً عند البار الإنكليزي الواقع في ردهة المدخل، لكني تنبهت إلى أن حالة التعب التي تعتريني لا تنقصها ميزات كحولية إضافية، فصعدت إلى غرفتي.

عندما رن الهاتف، كنت منشغلاً بتنظيف أسناني. للوهلة الأولى خطر لي أنها قد تكون الجمعية الثيوصوفية التي كانت قد قطعت لي وعداً بأن تهتف إليّ، ولكن الفكرة تلاشت بينما كنت أتوجه صوب الهاتف، ذلك أن الوقت متأخر جداً. ثم تذكرت بأني كنت قد أخبرت البوابة قبيل العشاء بأن ثمة صنبوراً معطلاً. وحقاً كانت البوابة قد أقبلت لتقول لي:

ـ أرجو المعذرة يا سيدي، هناك سيدة ترغب في التحدث إليك.

أجبت وفرشاة الأسنان محشورة في فمي:

ـ عفواً. ماذا قلتِ؟.

كررت:

ـ هناك سيدة ترغب في التحدث إليك.

- إذا أمهلتني خمس دقائق، سوف ألحق بكِ عند البار الإنكليزي. أعتقد أنه ما زال مفتوحاً.

قالت دون أن تهبني فرصة الاحتجاج:

- إني أفضل الصعود إليك؛ إنه أمر مستعجل.

كنت قد انتهيت للتو من إعادة ارتداء ملابسي مجدداً عندما قُرع الباب. قلت بأن الباب غير مغلق. فتحتْ وهي تحدّق فيّ برهة. كان الممر يقبع في العتمة وقد استطعت أن أميز أنها فارعة الطول، وأنها تلفّ فولاراً على كتفيها. دلفت إلى الداخل وهي تغلق الباب خلفها، كنت أجلس على الأريكة يغمرني نور باهر. نهضتُ ولم أقل شيئاً، بل رحت أنتظر. تكلمت، تكلمت دون أن تتقدم خطوة واحدة إلى داخل الغرفة. كان صوتها كما عهدته على الهاتف، خافتاً وثابتاً.

- أرجو المعذرة لهذا الإزعاج. قد يبدو لك سلوكي مشيناً، ولكن من المؤسف حقاً أننا أحياناً لا نملك أن نفعل خلاف ذلك.

قلت:

- اسمعي، لقد سبق أن عرفت الهند كبلد غرائب، ولكن فك الطلاسم ليس صنعتي. حاولي تجنب جهود لا طائل منها.

حدجتني بنظرة مملوءة بالاستغراب والصلف، لكنها قالت بنبرة هادئة.

ـ ما الذي ترمي إليه؟.

قلت:

ـ هل أنت لصة؟.

نظرت المرأة عبر النافذة ثم نزعت الفولار عن كتفيها. كانت جميلة. هكذا خيّل إليّ، أو لعله انعكاس الضوء المنبعث عن عاكس النور هو الذي يضفي على وجهها مسحة أرستقراطية وسامية. لم تكن يافعة، ولكن جسمها كان مكتنزاً؛ قالت:

ـ إنك مفرط في الحدّية.

مرت بيدها على وجهها كما لو كانت تطرد عنها تعباً ما، أو فكرة. سرت قشعريرة خفيفة في جسدها فارتجف كتفاها. تساءلت:

ـ ما الذي تعني السرقة؟.

حلّ السكون بيننا وانتبهت إلى الصنبور وهو ينقط بشكل مثير للحنق. قلت:

ـ سبق لي أن هتفت لهم قبل العشاء، وقد أكدوا لي أنهم سوف يصلحونه. إنه صوت لا يطاق وأخشى أن يحرمني النوم.

ابتسمت. كانت تستند إلى خزانة الملابس المصنوعة من خشب الجونكو وقد تدلى ساعداها نحو ردفيها كما لو كانت متعبة. قالت:

ـ أعتقد أن عليك أن تتأقلم...

ـ [illegible]

ـ لقد جئت من مادوراي بالتكسي وقد أنفقت كل يومي مسافرة.

مسحت جبينها بالفولار كما لو كان منديلاً، وقد بدا أن شعوراً باليأس أخذ يعتريها، أو هذا ما خيّل إليّ. قالت:

ـ إن الهند مُروِّعة، أما الطرقات فهي جحيم حقيقي.

قلت:

ـ إن مادوراي بعيدة جداً. كيف اتفق وجودك هناك؟.

ـ كنت أهم بالذهاب إلى تريفاندروم، ومن هناك كنت سأيمم شطر كولومبو.

قلت معترضاً:

ـ ولكن حتى من مدراس هنالك طائرة تسافر إلى كولومبو!.

قالت:

ـ لم أكن راغبة بذلك، ولدي أسبابي. ولن يكون من العسير عليك استنتاجها. على كل لقد غادرت الآن.

كانت ترمقني بنظرة متسائلة. قلت:

ـ على أية حال، كل شيء هناك حيث تركته في مكانه في آخر درج إلى اليمين. كان المكتب خلفها، مكتب من خشب البامبو وقد رصّعت أطرافه بالنحاس، وازدان بمرآة واسعة انعكست عليها صورة كتفيها العاريين فتحت

ـ في الواقع، إن هذه حماقة حقيقية. إن نقل كل هذه المبالغ هي عملية نصب رفيعة المستوى. ثم لا تلبثين أن تقترفي سهواً كبيراً كهذا.

قالت:

ـ من الجائز أني كنت مضطربة جداً.

أضفت:

ـ أو لعلك كنت مأخوذة بلذة الانتقام. لقد كانت رسالتك واضحة جداً. إنه انتقام عنيف، وهو لن يقدر أن يأتي بشيء البتة.

ـ إذاً فقد قرأت رسالتي؟!..

قلت:

ـ وقد نسخت جانباً منها أيضاً.

فاضت عيناها بالدهشة، أو لعله الخوف، وتمتمت:

ـ نسخت! لماذا؟.

أجبت:

ـ القسم الأخير فقط. أنا آسف لذلك. كنت أشعر بأني مضطر لفعل شيء كهذا. على كل، أنا لا أعرف حتى إلى من هي مرسلة. لقد استطعت أن أدرك فقط أنه رجل. وقد سبب لك ـ ولا بد ـ ألماً ممضاً.

قالت:

وسنوات عشت تحت اسم مستعار، حتى جاء يوم قررت فيه أن تضفي الحقيقة على هذا الاسم. من جهتي، أنا لا أعلم عنك سوى اسمك، وهو اسم شائع جداً، وليست لدي النيّة لمعرفة المزيد.

قالت:

ـ هذا حق، فالعالم مملوء بمن يدعين مارغريت.

نأت عن المكتب ثم توجهت صوب كرسي مرآة الزينة وجلست. أسندت مرفقيها إلى ركبتيها وهي تدس وجهها بين كتفيها. ظلت هكذا برهة من الزمن مغطية وجهها دون أن تنبس ببنت شفة.

تساءلتُ:

ـ ما الذي تنوين فعله؟!..

ردت:

ـ لست أدري. أشعر بخوف شديد. يجب أن ألحق ذلك البنك غداً في كولومبو، وإلا ذهبت كل هذه النقود هباءً.

قلت:

ـ استمعي إليّ قليلاً. لقد كاد الليل أن ينقضي، ولن تتمكني من الذهاب إلى تريفاندروم في هذه الساعة. في كل الأحوال لن تلحقي طائرة الغد هناك،

أجبت.

ـ لست أدري. يُحتمل أن الهاربين يروقون لي. ثم حتى أنا كنت قد سرقت شيئاً منكِ.

قالت:

ـ لقد تركت حقيبتي عند المدخل.

ـ أعتقد أن من الحكمة تركها في مكانها، ولسوف تستردينها صباح الغد. أستطيع إعارتك بيجاما؛ إن مقاسنا واحد.

ضحكت قائلة:

ـ بقيت مشكلة الصنبور.

وضحكت أنا أيضاً:

ـ على كل حال، لقد اعتدتِ أنتِ على هذا. بقيت مشكلتي أنا فقط.

6

قال:

ـ لا يمكن للأجسام الإنسانية إلا ان تكون مظهراً. إنها تقبض على حقيقتنا، تطغى على نورنا وعلى ظلمتنا.

رفع يده وهو يوميء بإشارة غامضة. كان يرتدي جبة بيضاء فضفاضة، وقد جعلت كمّها ينزاح حول المعصم الناحل.

ـ آه. ولكن هذه ليست الثيوصوفية التي يقول بها فكتور هوجو «مسافر والبحر».

ابتسم، صبّ لي مشروباً، ثم رفع كأسه المملوءة بالماء كما لو كان يشرب نخباً ما. رفعت الكأس أنا أيضاً، ثم فكرت، في صحة ماذا؟ قلت:

ـ في صحة النور والظلمة.

عاد يبتسم ابتسامته قائلاً:

ـ فلتعذر لي هذا العشاء المفرط في التقشف. إنها الطريقة الوحيدة التي تفسح لنا المجال كي نتحاور بهدوء، بعد تلك الزيارة التي قمت بها عصراً. إنّي متأسف جداً لأن مشاغلي لم تتح لي استقبالك منذ البداية بيسر.

قلت:

تنبهت إلى أن بضاعتي كانت مثيرة للشكوك بعض الشيء. الهواتف التي أجريتها، زيارتي بعد الظهر والتي أَلحَحْتُ فيها إلى شخص مفقود وحسب. لم يكن ممكناً لهم الاستجابة لمجرد إشارات رمزية غامضة. لقد كان ضرورياً أن أبين مقاصدي بوضوح أكبر، بدقة أكبر. ولكن ما الذي كنت أستطيع أن أسأل عنه في المحصلة النهائية وأنا لا أملك سوى معلومات بائدة؟ أثر مفترض، خيط يمكن له أن يوصلني إلى كسافيير.

قلت:

- إني أبحث عن شخص يدعى كسافيير جاناتابينتو، اختفى منذ حوالي سنة، وقد تناهت إليّ آخر أخباره في بومباي، ولدي من الأسباب الكافية التي تحملني على الاعتقاد بأنه كان على صلة مع الجمعية الثيوصوفية، وهذا هو مبرر وجودي هنا.

تساءل مضيفي:

- هل يعتبر نوعاً من التطفل سؤالك عن الدوافع التي تحدوك إلى قناعة من هذا القبيل؟!..

دخل الخادم حاملاً صينية. صبّ كل منا في كأسه مقتصداً. فيما يخصني كانت مسألة احتشام. فيما يخصه، من الجائز، مسألة تعوّد:

- أريد أن أعرف ما إذا كان عضواً في الجمعية الثيوصوفية!.

نظر مضيفي إليّ بحدة ثم أكد بشكل قاطع:

شخصية ومحدودة النطاق.

إنهمك يمضغ قطعاً من النبات مصحوباً برزّ لانكهة له. كان النادل ينتظر في ركن مجاور، حاملاً صينية في يده، وبإشارة من مضيفي اختفى برزانة.

قال موضحاً:

ـ لدينا أرشيف، ولكنه مقتصر على الأعضاء وحسب. في كل الأحوال إنه لا يتضمن مراسلات شخصية.

تناهيت في الصمت، ذلك لأني تنبهت إلى أنه كان يدير الحوار حسب هواه، لذا لم يكن ثمة طائل من الاستمرار بمطالب مباشرة وجلية للغاية.

سألني بعد برهة:

ـ هل تعرف الهند؟.

أجبت:

ـ كلا. إنها المرة الأولى التي أجيء فيها إلى هنا، ولم أستوضح بعد بجلاء أين عساي أكون.

قال موضحاً:

ـ إنني لا أعني الجغرافيا، إنما أعني الثقافة. أي كتب قرأت؟!.

أجبت:

لا أعتقد ذلك جيداً. الشيء الوحيد الذي أذكره هو كتاب شليجل. ولكن ليس ذاك المعروف جيداً من بين الاثنين. أعتقد أنه شليجل الأخ، وقد عنون كتابه بـ «حول اللغة والحكمة لدى الهنود».

أطرق قليلاً، ثم قال:

ـ يجب أن يكون كتاباً قديماً.

قلت:

ـ نعم. كُتِب سنة 1808 .

ـ لقد كانت ثقافتنا تجتذب الألمان دوماً، وكان لهم بعض الآراء الهامة. ألا تعتقد ذلك؟.

قلت:

ـ هذا جائز. لست أهلاً لتأكيد ذلك بثقة مطلقة.

ـ فيما يتعلق بـ (هيسّه) ما الذي تعتقده؟.

قلت:

ـ كان (هيسّه) سويسرياً.

رد مضيفي مؤكداً:

ـ كلا؛ كلا؛ لقد كان ألمانيا حصل على الجنسية السويسرية عام 1921 .

رددت بإلحاح:

طريقته في وضع نفسه بين المطواع والخبيث، كل هذا أثار في نفسي نوعاً من النفور الذي ما لبث أن تحول إلى حنق. كنت أحس هذا جيداً. لقد جئت لأسباب مختلفة جداً وقد أغفلها ببراعة وعدم اكتراث لحالة القلق التي كانت تعتريني، والتي لا بد أنه أحس بها من خلال الهواتف التي أجريتها. وبطاقتي. وها هو ذا يلقي عليّ أسئلة بلهاء حول (هرمان هيسه). أحس بنفسي مخدوعاً.

سألته:

ـ هل تعرف الروزوليو؟ هل سبق لك أن تذوقته؟.

رد:

ـ لا أعتقد. وما عساه يكون؟!.

ـ إنه مشروب إيطالي نادر الآن. كان يشرب مراراً في الصالات البرجوازية في القرن الثامن عشر. هو شراب حلو المذاق ودبق، يذكرني بهرمان هيسه دائماً. عندما أعود إلى إيطاليا سوف أرسل لك زجاجة منه؛ أفترض أن من الممكن العثور عليه.

كان ينظر إليّ دون أن يفهم ما إذا كان هذا نوعاً من السذاجة أم الوقاحة.

بالطبع كانت وقاحة. ذلك أني لم أكن أفكر هكذا بـ (هيسّه).

قال بجفاء:

ـ مع السكر؟.

أجبت:

ـ كلا، شكراً. أنا أيضاً لا أحب الأشياء الحلوة.

أعقب هذا صمت طويل ومربك. كادت عينا مضيفي أن تكونا مغلقتين، ثابتتين. خِلْتُ للحظة أنه استغرق في النوم. جهدت في تقدير سنّه دون أن أنجح. كان وجهه كهلاً، لكنه جد ناعم. وتنبهت إلى أنه كان ينتعل صندلاً مصنوعاً من الخيط في قدميه العاريتين.

باغتني بالسؤال ولما تزل عيناه مغمضتين:

ـ هل أنت غنوصي؟.

قلت:

ـ لا أعتقد ذلك.

ثم سرعان ما أضفت:

ـ لا، لست كذلك، إنما لدي بعض الفضول.

فتح عينيه. كان ينظر إليّ بشزر، وربما بسخرية:

ـ وإلى أي حد وصل فضولك؟.

قلت:

ـ سويدنبورغ، شيلبخ، آن بيزانت، نتفاً من كل شيء.

ـ بسوا. اه، بالطبع.

تساءلت:

ـ هل تعرفه؟.

رد:

ـ قليلاً. مثلك، عبر الآخرين.

قلت:

ـ لقد كان غنوصياً متخصصاً. كان من الصليب الأحمر وقد كتب سلسلة من القصائد الغامضة بعنوان Passos da Cruz.

رد مضيفي:

ـ لم يسبق لي أن قرأتها، ولكني أعرف بعض الأشياء عن حياته.

ـ هل تعرف ماذا كانت كلماته الأخيرة؟

رد:

ـ كلا. وماذا كانت؟.

قلت:

ـ أعطوني نظارتي. كان كليل البصر وقد رغب في دخول العالم الآخر حاملاً نظارتيه.

[illegible]

السأم.

ـ أنا أعرف ما الذي يحمله الغد.

قال:

ـ كم هي غريبة هذه الإنكليزية!!..

رددت:

ـ هذا حق. كم هي غريبة!.

نهض مضيفي متثاقلاً. أشار إليّ أن أظل جالساً. عبر الغرفة، قال وهو يخرج من باب يقع في أعماق الغرفة.

ـ أرجو المعذرة، سأعود بعد هنيهة، أرجو أن تأخذ راحتك.

ظللت ثاوياً أحدق في السقف وكان الوقت ولا شك متأخراً جداً. ساعتي معطلة. على حين بدأ يخيم سكون مطبق، خيل إليّ أني أسمع دقات ساعة في غرفة أخرى. لكن من المحتمل أنها كانت طقطقة خشب وحسب أو أن هذا محض تصوّر.

دلف الخادم إلى الغرفة دون أن ينطق بحرف وتناول صينية. بدأت أحس ببعض النفور، نفور اختلط بالإنهاك فولّد إحساساً داخلياً بالضيق أو عدم الراحة. أخيراً، عاد مضيفي وقبل أن يجلس قدم إليّ مُغلّفاً أصفر اللون وقد

[illegible] كان جالساً يلاحظني بفضول، أو هذا ما خيل إليّ. قلت:

ـ إذاً فهو لم يعد في بومباي، إنه في جوا. لقد كان في جوا حوالي نهاية سبتمبر.

أومأ برأسه دون أن يهمس ببنت شفة، فتساءلت:

ـ ولكن لماذا ذهب إلى جوا؟ إن كنت تعلم أي شيء أخبرني به.

أسبل كفيه فوق ركبتيه، وراح يحدثني بنبرة صارمة. قال:

ـ لست أدري. لا أعلم أي شيء عن الحياة الفعلية لصديقك. يؤسفني أني لا أستطيع مساعدتك. من الجائز أن حياته لم تكن يسيرة ولا وادعة. أو ربما هو نفسه رغب بذلك. لا يجب أن نقصر بإفراط معرفتنا بالحياة الظاهرة للآخرين.

رسم ابتسامة خفرة، ثم أشار بأنه لم يعد يملك أي شيء آخر ليقوله لي فيما يتعلق بالموضوع. تساءل مختتماً:

ـ هل ستمكث طويلاً في مدراس؟.

قلت:

ـ كلا. لقد أمضيت فيها ثلاثة أيام. سوف أغادر الليلة. لقد حجزت بطاقة الأوتوبيس من أجل رحلة طويلة.

خُيِّلَ إليّ أني أكاد ألمح في عينيه علامات استنكار وعدم تصديق، وشعرت بحاجة لأن أعطي تفسيراً أوضح.

أجبت:

ـ لقد زرت ماهابالي بورام وجانتشي بورام. زرت كل المعابد.

ـ هل نمت هناك؟.

ـ أجل في فندق حكومي صغير. إنه رخيص جداً. هذا ما تسنى لي إيجاده.

قال:

ـ إني أعرفه.

ثم تساءل:

ـ أي شيء نال إعجابك أكثر؟

ـ أشياء كثيرة. لكن من الجائز أنه معبد كايلاسانتا. إن له طابعاً مؤلماً وسحرياً.

قال وهو يهزّ رأسه:

ـ إنه وصف غريب.

ثم نهض بتؤدة متمتماً:

ـ أعتقد أن الوقت متأخر جداً. يجب عليّ أن أنجز الكثير من الكتابة الليلية. اسمح لي أن أرافقك.

(الميلاد)، ولكن الباب كان قد أُوصِد، وكان الخادم يقف عند رأس الممر منتظراً أن أخرج كيما يغلق البوابة خلفي.

7

كانت الحافلة تعبر أرجاء متصحرة. ثمة قليل من القرى الغافية. قطعنا أشواطاً بعيدة، وراح السائق يتجاوز منحنيات حادة جداً وهو يبدي بعض المهارات التي بدت لي مفرطة في المغالاة. لكنا ما لبثنا أن أخذنا نسير على طريق مستقيمة، رحبة. في هذه الليلة الهندية الصامتة، خلت أننا نخترق بلدة فيها نخل وكروم. لكنني لم أكن متيقناً من ذلك، حيث غدا الظلام أكثر حلكة، وأنوار المصابيح تجتاز القرى مسرعة عند المنحنيات. أجريت بعض الحسابات التي أظهرت لي أن مانغولار لن تكون بعيدة فيما لو وُفِّقتْ الحافلة إلى قطع المسافة بالزمن المقرر لها نفسه ابتداءً من وقت انطلاقها. في مانغولار ثمة خياران، فإما انتظار سبع ساعات للحافلة التي سوف تمرّ في طريقها إلى جوا، أو قضاء اليوم في الفندق وانتظار الحافلة التي ستغادر في اليوم التالي.

لم يكن رأيي قد استقر على خيار محدد، وقد غفوت برهة اثناء السفر. كان نومي مضطرباً. يقول دليلي عن هذه المدينة، إنها تقع على بحر عُمان، وإن المدينة لم تعد تحتفظ بشيء يذكر عن ماضيها. إنها مدينة صناعية حديثة، طراز العمارة فيها معاصر ومألوف، بل وتبدو الأبنية فيها متشابهة. إنها إحدى المدن القلائل في الهند التي لم يكن ثمة الكثير مما يستحق المشاهدة فيها...

أخرى. كان المسافرون ساكنين يغطون في النوم بسلام. وثمة عجوز يجلس أمامي مرتدياً عمامة، وقد تناول عصابة من الخيوط الصوفية وراح يلفها بأناة وصبر وهو يعدّل كل التواء في الخيط. همست بسؤال في أذنه. التفت نحوي راسماً ابتسامة خالية من أي معنى، حتى أني خلته لم يعِ ما قلت له. حدقت نحو الخارج عبر النافذة الصغيرة فرأيت عند حافة الطريق ما يشبه كشكاً كبيراً وقد انبعث منه نور خافت، كان يبدو وكأنه كراج مصنوع من الألواح الخشبية. عند الباب شاهدت امرأة، وقد راح الناس يدلفون نحو الداخل. قررت أن أتبين جلية الأمر من السائق نفسه. ولكن كان يسوؤني إيقاظه، فقد قاد الحافلة لساعات طويلة. ولكني كنت أعتقد بأن من الأفضل أن أُحاط بالأمر علماً. كان رجلاً بديناً يغفو فاغراً شدقيه. لمست كتفه، فنظر نحوي وقد بدا تائهاً.

سألته:

ـ لماذا نقف هنا؟ هذه ليست مانغولار.

رفع رأسه نحو الأعلى وهو يمسح شعره بيده قائلاً:

ـ لا يا سيدي، إنها ليست مانغولار.

ـ إذاً، فقيم وقوفنا هنا!

ردّ:

ـ ولكن ألا يستطيع المسافرون الذاهبون إلى مودابيري وكاركالا أن ينتظروا وحيدين! وهل يجب أن نشاركهم هذا الانتظار؟.

قال السائق بلهجة مطمئنة:

ـ على متن تلك الحافلة ثمّة مسافرون متوجهون إلى مانغولار، وسوف يصعدون معنا، ولهذا فإننا ننتظرهم.

تمدد فوق المقعد مجدداً موحياً لي أنه يعاود النوم. قلت له بنبرة مذعنة:

ـ كم من الوقت سنمكث هنا؟.

أجاب:

ـ خمس وثمانين دقيقة.

لم أفهم جيداً ما إذا كانت دقته في تحديد الوقت بهذه الصورة تنم عن نوع من التأدب بريطاني الطابع، أم انها تعبير عن سخرية مؤدبة. لكنه أردف:

ـ على كل حال، إذا كنت تعباً من الانتظار داخل الحافلة يمكنك النزول. هناك بالقرب منّا توجد صالة انتظار.

قررت أن من الأفضل أن أحاول بعث النشاط في قدمي مغالباً سأم الانتظار. كانت ليلة حلوة ورطبة معبأة بعبق الأعشاب، درت دورة حول الحافلة، دخنت سيجارة وأنا أتكيء على الجانب الخلفي منه، ثم توجهت نحو صالة الانتظار. كانت عبارة عن كوخ واطيء وطويل، وكان ثمة مصباح

حاملاً فوق كتفه قرداً وقد أخفى وجهه في شعر صاحبه وهو يطوق عنقه بيدين متشابكتين وقد شابه مزيج من الخوف والمودة.

باستثناء لمبة الغاز المعلقة أعلى الباب، كان ثمة شمعتان ركنتا فوق صندوق، وكان النور خافتاً.

لبثت عدة دقائق محدقاً في هؤلاء الناس. لم يبد أنهم فطنوا لوجودي بعد. استأثر منظر هذا الفتى وقرده باهتمامي، وأحببت طريقته في احتضان دميته قبل أن يخلد إلى النوم. يحتمل أن سيل الخواطر هذا هو الذي دفعني باتجاه ذلك الفتى. جلست قربه، نظر نحوي بعينين جميلتين ثم ابتسم، بادلته الابتسامة بدوري، عندئذٍ تنبهت وقد اعتراني بعض الارتباك إلى أن هذا الكائن المحمول على الكتفين لم يكن قرداً. كان مخلوقاً آدمياً مُشَوَّهَ الخلقة، مسخاً، شناعة الطبيعة أو عاهة مرعبة. كان جسمه منكمشاً وقد التَوت أشكاله وأبعاده. التوت أوصاله وتبدلت معالمها وكأنما اعتمدت في تشكيله مقاييس وأنظمة (غروتية) شنيعة. حتى الوجه البارز من خلال شعر صاحبه لم يكن قد نجا من هذا التشويه الكامل. الأدمة خشنة والتجاعيد عميقة مثل الجروح. كل هذا كان يضفي عليه ذلك المنظر القردي، والذي بالإضافة إلى قسماته، خلق في داخلي حالة الالتباس تلك.

العينان فحسب، في ذلك الوجه، كانتا إنسانيتين. عينان صغيرتان، حادتان تطفران ذكاءً متوثبتان بجزع من كل الاتجاهات كأنما مَسّهما خطر داهم أو أربدهما الخوف. حياني الفتى بمهارة. بادلته التحية أنا أيضاً. لم أكن قادراً على النهوض أو الانصراف [illegible]

رد الفتى صلفاً:

ـ تعلمتها في المدرسة. ارتدتها ثلاث سنوات.

صدرت عنه ارتعاشة خفيفة وهو يستدير برأسه وقد ارتسمت علائم الاعتذار على سيمائه، قال:

ـ إنه لا يتقن الإنكليزية؛ لم يتسنّ له الذهاب إلى المدرسة أبداً.

قلت:

ـ بالتأكيد إني أتفهم الوضع.

داعب الفتى هاتين اليدين اللتين كانتا تضغطان على صدره. ثم قال بنبرة ملؤها الود:

ـ إنه أخي، عمره عشرون سنة.

ثم ما لبث أن عاودته مسحة الفخر فأردف:

ـ لكنه يعرف القراءة. إنه يحفظها عن ظهر قلب. إنه ذكي جداً.

كنت أحاول التشبث بموقف غير العابىء، كما لو كنت زائغ الذهن أو غارقاً في التفكير وأنا أغالب بذلك عجزي عن النظر إلى ذلك المخلوق. تساءلت:

ـ ماذا ستفعلان في مودابيري؟

رد:

قلت:

ـ المعذرة، ولكني لا أدري ما يعني ذلك.

شرح الفتى دون أن يفقد صبره:

ـ (أرهانت هونبي جاينو). إنه يقرأ كارما الحجاج. إننا نكسب الكثير من النقود من جراء ذلك.

ـ هو إذاً عرّاف!.

قال الفتى بسذاجة:

ـ أجل، إنه يقرأ الماضي والمستقبل.

أطرق قليلاً كأنه كان يجمع أفكاره مثل أي مهني ماهر ومن ثم سألني:

ـ هل تريد معرفة كارماك؟ إن الأمر يحتاج إلى خمس روبيات وحسب.

قلت:

ـ طبعاً، اسأل أخاك.

حدث الفتى أخاه بلهجة ملؤها الود فأجابه ذاك هامساً وهو يرمقني بنظرات متوثبة، ثم توجه الفتى بالكلام نحوي قائلاً:

ـ يسأل أخي ما إذا كان بإمكانه لمس جبينك؟.

أومأ الفتى برأسه وهو ينظر. قلت:

ـ بالتأكيد، إن كان هذا ضرورياً

ـ إذاً! هل استطيع ان اعرف شيئاً مما يجري؟.

قال:

ـ أشعر بالأسف الشديد. إن أخي يقول إن هذا غير ممكن. إنك شخص آخر.

قلت:

ـ آه.. حسناً، فمن عساي أكون؟.

عاد الفتى يحادث أخاه، وراح هذا الأخير يجيبه مقتصداً. قال مشيراً إلى الأخ:

ـ إن هذا غير هام، إنه مايا وحسب.

ـ وما هي المايا؟.

ـ إنها ظاهر العالم، لكنها خداع محض. إن المهم هو الأتما.

ثم عاد يستشير أخاه، ثم يؤكد لي قناعته مجدداً:

ـ إن الأتما هي الشيء المهم.

ـ وما عساها تكون هذه الأتما؟.

رد الفتى وهو يبتسم من جهلي:

ـ إنها الروح، الروح الفردية

ـ آه، كلا. هناك الأتما أيضاً، إنها مع الكارما، إنه أمر مقدّر ومحتم.

ـ إذاً، طالما أني شخص آخر، أرغب في أن أعرف أين عسى أتماي يكون الآن؟.

نقل الفتى ما قلته لأخيه. أعقب ذلك حوار مقتضب ثم عاد يقول لي:

ـ من الصعب جداً القطع بذلك، إنه لا يقدر عليه.

قلت:

ـ حاول أن تستوضح منه ما إذا كانت عشر روبيات تساعده على ذلك؟.

قال الفتى له ذلك، فعاد يثبتني بعينين صغيرتين ثم تلفظ ببضعة كلمات محدثاً إياه على عجل.

أخذ الفتى يترجم ما قاله:

ـ إنه يقول إنها ليست قضية روبيات، إنك غير موجود، وهو لا يقدر أن يقول أين عساك تكون.

رسم ابتسامة حلوة، ثم أردف:

ـ ولكنك إن رغبت في وهبنا عشر روبيات فإننا نقبلها.

قلت:

ـ سوف أعطيك إياها بالطبع، ولكن اسأله ... على الأقل ... أكون

ثم خطرت لي فكرة، فقلت:

ـ قل له أن يحاول التخمين، أن يحزر ذلك.

حدّق الفتى فيّ دهشاً ثم قال:

ـ أن يحزر ماذا؟.

قلت:

ـ أن يحزر أين عسى أتماي تكون. ألم تقل إنه عراف؟

نقل الفتى اقتراحي فأجابه الأخ باقتضاب، فقال:

ـ يقول إنه سوف يحاول، ولكنه لا يضمن أي شيء.

ـ إن هذا غير مهم، فليحاول وحسب.

ثبتني الفتى بشدة. أطال في ذلك، ثم أشار بيده. انتظرت أن يتكلم فلم يفعل. كانت أصابعه تتحرك في الهواء وهي ترسم أمواجاً. ثم ما لبث أن ضم كفيه كما لو كان يهمّ بجمع الماء الذي تخيل. تمتم ببضع كلمات، فهمس الفتى لي بدوره:

ـ يقول إنك فوق مركب.

أشار المسخ بكفيه نحو الأمام، ثم جمد في مكانه.

قلت:

ـ في مركب؟ اسأله أين؛ هيا أسرع، أي مركب هذا؟.

الفصل الثالث

8

كان الحارس ذا وجه متغضن، لكنه محبب، عليه أكوام من شعيرات ناصعة البياض تمايز عن جلد زيتوني اللون. كان يتكلم البرتغالية بطلاقة، وما أن لفظت اسمي حتى ابتسم ابتسامة عريضة وهو يدلّي برأسه كما لو كان قد سُرّ لرؤيتي. أوضح لي بأن السيد بريوري مشغول بإنجاز واجباته المسائية، وأنه يرجو مني انتظاره في مكتبه. ناولني بطاقة كتب عليها: أهلاً بك في جوا، سوف ألحق بك في المكتبة حوالي الثامنة والنصف، إن احتجت لأي شيء، ستجد تيوتونيو في خدمتك. الأب بيمنتال.

قادني تيوتونيو عبر السلالم وهو يهذر. كان ثرثاراً، لكنه لبق. وقد قضى شطراً طويلاً من حياته في البرتغال في «فيلّا دوكوندي»، وقال إنه في ذلك المكان، حيث يعيش أقارب له، كان معجباً بالحلويات البرتغالية، خصوصاً الـ (pao de lo).

كانت السلالم مصنوعة من خشب غامق اللون، تقود نحو الأعلى مفضية إلى حيث يقع رواق مضاء بنور خافت، وقد وضعت فيه طاولة طويلة، وخارطة للعالم على الجدران. وثمة لوحات تتضمن أشكالاً طبيعية الحجم لرجال ملتحين، وقد أسدل الزمان على وجوههم ستاراً مظلماً. تركني تيوتونيو

كتابين دونما تحديد، ثم جلست على الأريكة الملاصقة لباب المدخل. على الطاولة كان ثمة كتاب مفتوح، لكني لم أدقق النظر فيه. فتحت واحداً من الكتابين اللذين تناولتهما، وقرأت: «كان عمانويل جودينهو يحمل رؤية براغماتية للعالم. لم يكن هذا ملائماً قط لصنعته كحارس للإيمان الكاثوليكي، وهو يقوم بعملية التغيير الكبرى هذه في ذلك الجزء من العالم، محاصراً بمجمع الهندوس. كانت رواياته دقيقة ومفصلة، خالية من أية روح احتفالية، أو نزعة بلاغية. لم يكن يحبذ اللجوء إلى الرموز ولا إلى استخدام المجاز. كانت رؤية ذلك القس استراتيجية، وكان يقسّم العالم إلى مناطق مهيأة وأخرى غير مهيأة، ويرى في الغرب المسيحي قلب العالم». كنت قد وصلت إلى نهاية الإستهلال المقدّم إلى الملك عندما شعرت ـ ولست أدري مدعاة ذلك ـ بأني قد لا أكون وحيداً في الغرفة. ربّما سمعت قرقعة خفيفة، أو صوت أنفاس متصاعدة. بالأحرى، وفي أغلب الإحتمالات، كنت أحس ذلك الإحساس الذي ينتابنا عندما نشعر بأن هناك أنظاراً مصوبة نحونا. رفعت عينيّ، وتفحصت المكان. فوق إحدى الأرائك، بين النافذتين، وفي الجانب الآخر للصالة، لمحت تلك الكتلة المعتمة. كانت قد بدت لي لمّا دخلت الغرفة وكأنها ثياب ملقاة بإهمال على ظهر الكرسي. استدار ببطء، تماماً كما لو كان ينتظر تلك اللحظة، لحظة رؤيتي له، ثم حدجني بنظرة ثاقبة. كان رجلاً عجوزاً، ذا وجه متطاول، حُفرت فيه أخاديد، وقد غطى رأسه بقبعة لم أكن لأميز طرازها بوضوح. همسَ:

ـ أهلاً بك في جوا، لقد كان قدومك إلى مدراس عملاً متهوراً، ذلك أن

وجعلني أحار جواباً، كيف استطاع أن يعرف طريق سفري؟ فكرت، من أعلمه بذلك؟ قال لي العجوز كما لو أنه قرأ أفكاري:

ـ لاتقلق، إن لدي الكثير من العيون.

لفظ جملته بلهجة أقرب إلى التهديد، فانبعث الفضول في داخلي. إحساس غريب! كنا نتحادث بالبرتغالية على ما أذكر. كلماته باردة ومطفأة، كما لو أن ثمة مسافة ميتة بينه وبين نبرته. لِمَ كان يتحدث بهذه الطريقة؟ فكرت، من عساه يكون؟! كانت الغرفة الطويلة تقبع في الظل، على حين ثوى هو في الجانب الآخر منها، بعيداً عني. وكان ثمة طاولة تحجب جزءاً من جسمه عن رؤيتي. كل هذا، إضافة إلى عنصر المباغته، لم يتح لي المجال كي أتفحص مظهره، لكنني تنبهت إلى أنه كان يعتمر قبعة مثلثة الشكل، منسوجة من قماش رخو. اللحية طويلة ورمادية، تتهدل على صدر مغطى بصدرية مزركشة بخيوط فضية. الأكتاف ملفوفة بملاءة سوداء، فضفاضة، من طراز قديم، والأكمام منتفخة.

قرأ علائم الإضطراب وهي بادية على وجهي. أزاح كرسيه، ثم وثب إلى وسط الغرفة برشاقة لم أكن لأتوقعها منه. كان ينتعل أحذية فرسان طويلة، مقلوبة عند الفخذين، متغمداً سيفاً في خاصرته. صدرت عنه هذه الحركة المسرحية المضحكة بعض الشيء، راسماً بيده اليمنى شكلاً حلزونياً، معيداً إياه باتجاه القلب، ثم صرخ بصوت جهوري:

ـ أنا الفونسو دي البوكرك، نائب ملك الهند

من تلقاء نفسها، دون أن تتمكن إرادتي من إخضاعها ومراقبتها، قلت:

ـ إنك قريب الشبه من إيفان المرعب، أو بالأحرى من ذلك الممثل الذي قام بدوره.

صمتَ، ثم ألصق يده بأذنه.

فأوضحت:

ـ كنت أعني فيلماً قديماً خطر ببالي.

وبينما كنت أقول هذا، لمع وجهه، كما لو أن ناراً قد اشتعلت في موقد مجاور له. لم يكن ثمة أي موقد، مازالت الغرفة تقبع في العتمة، بل ومن المحتمل، أن آخر شعاع ضوء كان في سبيله إلى الأفول.

صرخ مرة أخرى:

ـ ما الذي أتيت تفعله هنا؟ ما الذي تريده منا؟

أجبت:

ـ لاشيء، لاشيء البتة، جئت لأقوم بدراسة أرشيفية. إنها مهنتي، هذه المكتبة تكاد تكون مجهولة في الغرب، إني أبحث عن وقائع قديمة.

ألقى العجوز عباءته فوق أحد كتفيه، تماماً كما يفعل الممثلون على خشبة المسرح وهم يتهيأون للمبارزة، ثم صرخ بحدة:

ـ إنها كذبة، لقد جئت من أجل هدف آخر.

لم يرهبني عنفه، بل لم أكن أخشى حتى أن يعتدي علي. كنت أحس

ـ لقد جئت أبحث عن كسافيير، هذا حقيقي، وأنا أبحث الآن عنه.

نظر إلي بظفر. الآن، ارتسمت سخرية على وجهه، بل من الجائز شعور بالمقت، تساءل:

ـ ومن هو كسافيير؟

بدا لي سؤاله هذا نوعاً من الخيانة، ذلك أني شعرت بأنه يكاد يخلّ باتفاق ضمني، إتفاق يقضي بأنه من المفترض أنه يعرف من هو كسافيير، وأنه لم يكن من الجائز أن يسألني عنه، لذا لم أكن راغباً في أن أبوح له بذلك، قلت كاذباً:

ـ كسافيير هو أخي.

قهقه بعنف، ثم وجه سبابته نحوي قائلاً:

ـ إن كسافيير غير موجود، إنه وهم وحسب.

أومأ كمن يحتضن الغرفة، ثم تابع:

ـ كلنا موتى، ألم تفهم هذا بعد؟ أنا ميت، وهذه المدينة ميتة، المعارك، العرق، الدم، الفخر، سلطتي، كل شيء ميت، لاشيء ينفع في شيء.

قلت:

ـ كلا، بعض الأشياء تبقى على الدوام.

ردّ:

ـ مثل ماذا؟ ذكرياتنا، هذه المكتبة

[illegible]

ـ أنا عازف هاميلين.

ثم مالبث صوته أن غدا ودياً، أخذ يناديني بروفسوراً، قائلاً لي:

ـ اعذرني إن كنت قد أيقظتك.

قال الأب بيمنتل:

ـ اعذرني إن كنت أيقظتك.

كان رجلاً في العقد الخامس، له هيئة صارمة، وملامح صادقة، مدّ لي يده، فنهضت مبعثر الذهن وأنا أقول:

ـ آه، أشكرك، كنت أرى حلماً فظيعاً.

جلس على الأريكة بجانبي، وراح يهدئني بحركة منه، قال:

ـ لقد تسلمت رسالتك. الأرشيف في خدمتك، تستطيع أن تمكث فيه الوقت الذي تحب. أظن أنك ستبيت الليلة هنا، وقد أعددت لك غرفة. دخل تيوتونيو وفي يده صينية شاي، وقطع من الحلوى، خيل إليّ أنها الـ Pao de lo قلت:

ـ أشكرك؛ إن كرم ضيافتك يبعث الراحة في نفسي، لكني في كل الأحوال لن أبقى الليلة هنا. سوف أتجه صوب كالانجوت. لقد استأجرت سيارة، وأريد أن أحصل على بعض المعلومات فيما يتعلق بشخص ما، وسوف أعود بعد أيام.

9

قد يصدف لك في حياتك أن تنام في فندق زواري. في اللحظة ذاتها قد تبدو مناسبة غير سعيدة بشكل خاص، ولكن في الذكرى، كما في سائر الذكريات، وقد نُقّيت من الأحاسيس الفيزيائية المباشرة، من الروائح، من الحرارة، من الرؤية، فإن الظروف تأخذ نوعاً من الغموض الذي يزيد جمال الصورة. إن الحقيقة الماضية هي دوماً الأقل سوءاً من ذاك الذي كان بالفعل. والذاكرة هي مُزيّف خارق. تُجرى عمليات إفساد حتى وإن لم يكن ذلك، إرادياً، مرغوباً به. إن فنادق من هذا الطراز مألوفة لتصوراتنا وقد نجد لها نظائر في كتب كونراد أو ماوكهام، في بعض الأفلام الأمريكية المقتبسة عن روايات لـ كيبلنغ أو برمفيلد، لذا تبدو لنا تقريباً مألوفة.

وصلت فندق زواري آخر المساء، لذا كان الاختيار إجبارياً، كما يحدث دوماً في الهند. فاسكو دي غاما هي مدينة تابعة لمقاطعة جوا، وهي بشعة بشكل استثنائي ومظلمة. الأبقار تجوب الشوارع، أناس فقراء يرتدون ألبسة غريبة موروثة عن العصر البرتغالي. لها ـ في المحصلة النهائية ـ مظهر بائس، بؤس دون أسرار. يكثر المتسولون، ولكن هنا ليس ثمة معابد أو أماكن مقدسة، وهؤلاء المتسولون لايستعطفون باسم فيشنو ولاتوجد هبات أو أشكال دينية،

إلى حيث توجد لوحة الباب. ولكن هذا المساء كان معتماً جداً، ولم يكن ثمة طاولات. كنت أتعشى في صحن الفندق، إنه صغير، مملوء بأشجار البوكانفيل والورود العطرة. الطاولات منخفضة، وكان ثمة مقاعد خشبية صغيرة، وضوء خافت جداً. أكلت جمبرياً ضخماً جداً يشبه جراد البحر، وحلويات المنجا، ثم شربت الشاي ونوعاً من النبيذ كنت أعرفه من لونه. كل هذا كلفني حوالي ثلاثة آلاف لير إيطالي، وهذا مابعث الراحة في نفسي. على طول الفناء كانت تنهض الشرفة التي تقابل الغرف. فيها، وبين أحجار الكورتيل كان يركض أرنب أبيض. كان ثمة عائلة هندية تتناول العشاء على طاولة في عمق الكورتيل. بجانب طاولتي كان ثمة سيدة شقراء يصعبُ تحديد سنها، وقد ذبلت نضارة وجهها. كانت تتناول طعامها بأصابع ثلاثة على الطريقة الهندية، وهي تضع كرات من الرز تغمسها في المرق. خيل إليّ أنها إنكليزية، وبالفعل كانت كذلك. كانت نظراتها تائهة، مجنونة، ولكن هذا كان يحدث فقط من وقت لآخر، وقد روت لي قصة لاأجد الوقت مناسباً لأرويها. من الجائز أن هذا أيضاً كان حلماً ثقيل الوطأة. على كلٍّ فإن فندق زواري لايأتي بأحلام وردية.

10

ـ كنت ساعي بريد في فيلادلفيا. منذ ثمانية عشر عاماً وأنا أجوب الطرقات حاملاً حقيبة ذات نجاد، دائماً، كل الصباحات، في الصيف عندما الإسفلت يشبه الدبس، وفي الشتاء عندما تسقط فوق الثلج المتجمد، هكذا، لعشر سنوات. أنت لاتدري كم من الرسائل حملت، الآلاف؛ الجميع كانوا سادة، على المظروف، رسائل من سائر أنحاء العالم، من ميامي، باريس، لندن، كاراكاس، صباح الخير ياسيدي، صباح الخير يا سيدي، أنا ساعي البريد.

رفع ذراعه وأشار إلى مجموعة من الصبيان على الشاطئ. كانت الشمس تأفل، والماء يلتمع. ثمة صيادون بالقرب منّا يجهزون سفينة، كانوا رجالاً أنصاف عراة، وقد عقدوا أرديتهم حول خصورهم، قال:

ـ كلنا هنا متساوون، لايوجد سادة.

حدجني بنظرة خبيثة وقال:

ـ هل أنت سيد؟!

ـ ما الذي تتوقعه أنت؟

نظر إليّ بارتياب قائلاً:

ـ سوف أجيبك لاحقاً

ـ هل تدخن؟

قلت:

ـ في العادة لا، ولكن الآن نعم إذا وهبتني واحدة.

لفّ واحدة أخرى من أجلي وهو يقول:

ـ هذا التبغ جيد، إنه يجعلك سعيداً، هل أنت سعيد؟

قلت:

ـ إسمع، تعجبني قصتك، أكمل روايتها لي.

قال:

ـ هيه، في أحد الأيام كنت أسير في أحد شوارع فيلادلفيا؛ كان البرد قارساً، وأنا أوزع البريد صباحاً. المدينة مملوءة بالثلج، إنها هكذا، بشعة فيلادلفيا. كنت أقطع شوارع هائلة، ثم دلفت إلى زقاق طويل ومعتم، فقط نصلةٌ من الشمس نجحت في أن تثقب الضباب، وأضاءت لي عمق الزقاق. كنت أعرف هذا الزقاق جيداً، أحمل إليه البريد كل يوم، كان شارعاً ينتهي عند السور الخارجي لمكتب لبيع السيارات؛ هه، هل تعرف ماذا شاهدت في ذلك اليوم؟ حاول أن تحزر.

قلت:

ـ ليس عندي أدنى فكرة.

ـ حاول أن تحزر

ـ إن هذا مثير للفضول.

ـ لقد سبق لي أن رأيت البحر في السينما فقط، أو على البطاقات التي ترد من ميامي أو من الهافانا. ذاك كان بحراً حقيقياً، محيطاً، ولكن لم يكن ثمة أحد موجود. كان الشاطئ متصحراً، وقد فكرت، هل نقلوا البحر إلى فيلادلفيا؟ ثم فكرت، لعله السراب! كما يُقرأ في الكتب، ما الذي كنت ستفكر فيه أنت لو كنت في مكاني؟

قلت:

ـ الأشياء ذاتها.

ـ هذا حق، ولكن لايمكن جرّ البحر إلى فيلادلفيا، والسراب يحدث في الصحراء عندما تكون الشمس لاذعة وأنت جد ظمآن. كان ذلك اليوم بارداً جداً، كل شيء مملوء بثلج وسخ. وهكذا اقتربت شيئاً فشيئاً من ذلك البحر مأخوذاً به، وبي رغبة عارمة في أن أقفز فيه، حتى ولو كان البرد لاذعاً، لأن تلك الزرقة كانت دعوة. الأمواج تبرق، الشمس تتلألأ.

صمتَ قليلاً، سحب نفساً من سيجارته، مبتسماً، وقد بدا شارد الذهن، غائباً، وهو يعيش من جديد ذلك اليوم.

ـ كانت لوحة. لقد رسموا البحر. أولاد الكلب، إنهم يفعلون ذلك مراراً في فيلادلفيا. إنها فكرة المهندسين المعماريين، إنهم يرسمون على الإسمنت

ـ إني أعرف لهذه الجملة وجهاً آخر، ولكن المعنى هو نفسه.

ضحك وقال:

ـ إن الأمر بالضبط كذلك. عندئذٍ هل تعرف ما الذي فعلته؟ حاول أن تحزر.

ـ ليس عندي أدنى فكرة.

ـ حاول أن تحزر.

قلت:

ـ إني أستسلم، إنه صعب للغاية.

ـ فتحت حاوية الزبالة، ثم أفرغت فيها حقيبتي. حسناً، لتركني هنا أيتها الرسائل. ثم هرعت راكضاً إلى المركز الرئيسي، وطلبت مقابلة المدير. إني بحاجة إلى راتب ثلاثة أشهر مقدماً. قلت إن أبي يعاني من مرض خطير وهو راقد في المستشفى. انظر، هذه هي المستندات الطبية. قال، قبل ذلك يجب أن توقع على هذا التصريح. فوضعت توقيعي وأخذت النقود.

ـ ولكن هل كان أبوك مريضاً حقاً؟

ـ بالتأكيد إنه لم يكن كذلك. على كلٍّ كان سيموت حتى لو بقيت أحمل الرسائل إلى السادة في فيلادلفيا. قلت:

ـ هذا منطقي.

ـ دليل الهاتف!.

ـ فعلاً، دليل هواتف فيلادلفيا. كانت هذه هي كل أمتعتي وماتبقى لي من أمريكا، تساءلت وقد بدأ اهتمامي بالأمر يتزايد:

ـ ولكن لماذا؟

ـ لأكتب البطاقات، الآن، أنا من يرسل البريد إلى السادة في فيلادلفيا. بطاقات عليها بحر جميل، وشاطئ كالانجوت الصحراوي، وكنت أكتب في الخلف: سلام قلبي من ساعي البريد تومي. لقد وصلت إلى الحرف C بالطبع كنت أغفل الأحياء التي لاتهمني، وكنت أكتب دون طوابع. أما الضريبة فسوف يدفعها المرسل إليه.

سألته:

ـ منذ متى وأنت هنا؟

أجاب:

ـ منذ أربع سنوات.

ـ لابد أن يكون دليل هواتف فيلادلفيا كبيراً.

قال:

ـ نعم، ولكني لست مستعجلاً، عندي الحياة بأكملها.

أوقد الجمع على الشاطئ ناراً هائلة. أحدهم كان يغني. ابتعد أربعة

في كانون الأول، أجاب تومي.

ـ على كلٍّ، إنه شيء من هذا القبيل.

تدنو الطفلة منه، تطبع قبلة على جبينه، ثم تنصرف مع الآخرين.

قلت:

ـ ولكنهم ليسوا يافعين، إنهم يبدون أرباب عائلات.

رد تومي:

ـ إنهم أولئك الذين يصلون قبلاً، الحجّاج.

ثم نظر نحوي وقال:

ـ ولكن، أنت! كيف أنت؟

أجبت:

ـ مثلهم.

ـ أترى.

قال ذلك وهو يحضّر سيجارة أخرى، يقسمها إلى قسمين ويعطيني نصفها قائلاً:

ـ كيف صدف أنك في هذه الأنحاء؟

ـ إني أبحث عن رجل يدعى كساڤيير، من المحتمل أنه سبق له أن مرّ هنا.

خفض تومي رأسه قائلاً:

ـ ولكن هل هو من الأناس ...؟

تقول:

قال تومي موضحاً:

ـ إنها صديقتي.

كانت شقراء شاحبة، عيناها غائبتان، وقد عقدت فوق شعرها ضفرتين طفوليتين. تمشي مشية مترنحة، وغير ثابتة. سألها تومي إن كانت تعرف شخصاً بهذه المواصفات التي كنت قد بينتها له سابقاً. ابتسمتْ ابتسامة غامضة ولم تجب، ثم مالبثت أن مدّت يدها بحلاوة وهمست:

ـ فندق ماندوفي.

قال تومي:

ـ لقد بدأ الحفل، هل تأتي أنت أيضاً.

كنا نجلس على حافة أحد القوارب، عليه سيماء بدائية، كان ذا صارٍ خشن كأنه قارب شراعي، قلت:

ـ قد ألحق بكم في وقت متأخر، سوف أضطجع داخل القارب وأغفو بعض الوقت. وبينما كانا يبتعدان، رحت أصرخ، ذلك أنه كان قد غفل أن يقول لي إن كنت أنا سيداً أم لا.

توقف تومي، رفع ذراعه ثم هتف:

ـ حاول أن تحزر.

هتفت:

إلى تلك الظهيرات التي كنا نقضيها في القبة الفلكية الإصطناعية. ثم فجأة بدأت أتذكر كل شيء كما سبق لي أن تعلمته. وحسب تصنيف الشدة الضوئية، سيرو، كانوابو، سنتواريو، فيجا، كابللا، ارتورو، أوررويون(*) ثم خطرت ببالي النجوم المتغيرة، وفكرت في كتاب شخص عزيز عليّ، وفي النجوم المطفأة، حيث مازالت أضواؤها تصلنا حتى الآن، وفي النجوم، وفي النتيرون، ثم في الطور الأخير للتطور، وفي الإشعاع المؤثر الذي يرسله. ثم همست بصوت خافت Pulsar . وكأنما همسي أيقظ شيئاً ما في داخلي، كأنه جهاز تسجيل أديره فيعمل، ومن ثم يتناهى إليّ الصوت المزكوم والهادئ للبروفسور ستيني، الذي كان يقول: عندما تصل كتلة نجم في حالة احتضار وتغدو ضعف حجم الكتلة الشمسية، لن يوجد في هذه الحالة قدرة على مقاومة التمركز، وهذا مايحدث في اللانهاية، لن تعود وتخرج الإشعاعات أبداً من هذا النجم ومن ثم يتحول إلى ثقب أسود.

11

كم من الأشياء يثير السخرية في النفس! لقد سُمِّيَ فندق (ماندوفي) بهذا الإسم لقيامه على ضفة النهر. نهر ماندوفي، هو نهر واسع، لكنه مؤنس. عند مصبه في البحر يبدو موشّىً بشاطئ يكاد يكون بحرياً. إلى اليسار هناك مرفأ باتاجي، وهو عبارة عن مرسى نهري للقوارب الصغيرة، اصطفت فوقه العوامات التجارية. جسران غير مترابطين، ورصيف صدئ. لما وصلتُ أخذ القمر بالبزوغ، كأنه كان يخرج من النهر، بل من الرصيف نفسه، تحيط به هالة صفراء اللون. كان بدراً أحمر قانياً. فكرت بعض الشيء؛ قمر أحمر! فخطر لي على الفور أن أدندن بأغنية قديمة. بزغت هذه الفكرة في رأسي كأنها تدور في دائرة ضيقة. تذكرت اسم روكس ثم كلمات كسافيير: لقد غدوت عصفوراً ليلياً. هكذا بدا لي كل شيء واضحاً، لكنه مثير للسخرية في الوقت نفسه، ثم تساءلت: لِمَ لم أفكر في ذلك قبلاً؟ دخلت الفندق، ألقيت نظرة حولي. يعود تاريخ فندق ماندوفي إلى نهاية الخمسينيات، لكنه يبدو عتيقاً جداً. من المحتمل أنه بُنِيَ في تلك الحقبة حيث كان البرتغاليون مازالوا في جوا. خيّل إليّ - ولست أدري مدعاة ذلك - أني أشاهد آثاراً تدل على الذوق الفاشي الذي كان سائداً في ذلك الوقت. البهو واسع، جائز. كأنه يشبه صالة انتظار في محطات القطارات. من الجائز أيضاً أنه ذلك الأثاث غير محدد الملامح ولا الاكتراث،

أوضحت:

ـ ذات شرفة، مطلّة على النهر.

قال الموظف:

ـ حاضر.

وبينما كان يدون المعلومات في سجلاته، تساءلت:

ـ هل أنت المدير هنا؟

ـ ردّ:

ـ لا يا سيدي، إن المدير غائب، ولكن يمكن اللجوء إليّ فيما يتعلق بأي أمر كان.

قلت:

ـ إني أبحث عن المستر نيغتنغال.

قال بهدوء تام:

ـ لم يعد المستر نيغتنغال يقيم هنا، لقد سافر منذ أمد طويل.

تساءلت وأنا أجاهد كي أحافظ على نبرة هادئة وطبيعية:

ـ هل تعرف أين عساه يكون؟

ردّ:

ـ بالطبع إلى بانكوك، إن المستر نيغتنغال كثير السفر، إنه رجل أعمال

ـ كنت أعتقد أن في الفندق ثمة من هو قادر على إعطائي بعض المعلومات الدقيقة.

إني أبحث عنه من أجل عمل ضروري، وقد جئت من أوربا بهذا القصد.

لاحظت أنه كان مرتبكاً، فاقتنصتُ الفرصة، أخرجت ورقة من فئة العشرين دولاراً، دسستها له تحت جواز السفر، قلت:

ـ إن الأعمال باهظة الثمن، إنه لأمر كريه أن تقوم برحلة خاوية؟..

تناول الورقة النقدية، ثم أعاد إليّ جواز السفر قائلاً:

ـ في كل الأحوال لايأتي المستر نيغتنغال هنا إلا نادراً.

بدا وكأن سمات الشعور بالندم تلوح عليه، أضاف:

ـ إن فندقنا ذو مستوى جيد، لكنه لايقارن بالفنادق الفخمة.

من الجائز أنه... وفي هذه اللحظة بالذات، تنبه إلى أنه قد أفرط في الكلام، وإلى أني أُثَمّن إفراطه هذا، ثم كانت نظرة، ومرت برهة.

ـ يجب أن أنهي عملاً هاماً وسريعاً مع المستر نيغتنغال.

قلت هذا وأنا أكاد أحس بأن هذا الصنبور قد بدأ يغلق، وبالفعل، قال:

ـ لم أعد أهتم بأعمال المستر نيغتنغال.

كان رده مؤدباً، لكنه صارم، ثم أردف وقد علت نبرته علائم رسمية:

ـ كم يوماً ترغب في المكوث هنا يا سيدي؟

ـ أجبت:

تناولت المفاتيح شاكراً إياه، وبينما كنت أقف أمام المصعد، عدت أدراجي، وبادرته بسؤالٍ خالٍ من أي سوء نيّة:

ـ يخيل إليّ أن المستر نيغتنفال كان يتناول طعامه في المطعم عندما كان يقيم هنا.

نظر إلي دون أن يفهم الكثير، لكنه أجاب مفاخراً:

ـ بالطبع، إن مطعمنا واحد من أفضل مطاعم البلد.

النبيذ في الهند باهظ الثمن، إنه تقريباً في معظمه مجلوب من أوروبا. ان تشرب النبيذ، حتى ولو كان في مطعم جيد، فهذا يدل على أنك ذو مركز مرموق. حتى دليلي السياحي كان يشير إلى هذا، ذلك أن مجرد طلب النبيذ في المطعم يؤدي إلى تدخل كبير النُدُل، وكنت أعلق أملاً كبيراً على مسألة النبيذ هذه.

كان كبير النُدُل بديناً، يحمل نظارتين، وذا شعر مدهون بالصباغ. كانت طريقته في لفظ أنواع النبيذ الفرنسي مروّعة، وقد عرض علي القائمة كلها موضحاً لي ميزات كل صنف على حدة. خلت أنه كان يتلعثم أحياناً، لكنني أعرضت عن هذا. تركته ينتظر قليلاً من الوقت وأنا أتفحص اللائحة. كنت أعلم أني كنت أسرف كثيراً. على كلٍّ، كانت هذه هي نقودي الأخيرة. تناولت قطعة من فئة العشرين دولاراً، ثم دسستها داخل اللائحة وأغلقتها،

ـ كان المستر نيغتنغال لايتعامل إلا مع بضائع من النخب الممتاز حسبما أعلم، هل تعتقد ذلك أنت أيضاً؟

حدق في الزجاجة بنظرة خالية من أي تعبير، ثم أجاب بلهجة لبقة:

ـ لست أدري يا سيدي، إن هذا يعتمد على تنوع الأذواق.

قلت:

ـ المسألة هي أنه حتى ذوقي أنا هو جد معقد، فأنا أشتري فقط من النخب الممتاز. صمتُّ برهة كي أضفي على حديثي طابع الأبهة ولكي يبدو، في الوقت نفسه، حميمياً. كنت أشعر بأني كما لو كنت في حلم، وقد راقني اللعب كثيراً. وكنت أعلم أن الحزن سيأتي بعد قليل. أخيراً قلت وأنا أشدد على الكلمات:

ـ إنها بضاعة جد حسنة، وكميتها وافرة أيضاً، وليست مجرد قطرات. حدق في كأسي مجدداً بنظرة خالية من أي تعبير، ثم أردف مواصلاً العراك:

ـ أخشى أن لايكون النبيذ هو مما يليق بك يا سيدي!

راحت تؤلمني لعبة الأجر المرتفع هذه. كانت نقودي في سبيلها إلى النفاد، ولكن يجب المضي في اللعبة حتى النهاية، ثم إني كنت متأكداً أن الأب بيمنتال سوف يقرضني بعض المال، فأذعنت للعبة رفع الأجر هذه، قائلاً:

ـ حسناً إحمل لي اللائحة مرة أخرى، أريد اختيار صنف أكثر جودة.

قلت:

ـ سوف أجرؤ على طلب ذلك منك شخصياً، ما الذي تنصحني به؟

ردّ:

ـ لو كنت في مكان حضرتك لبحثت عن فندق آخر على الساحل.

قلت:

ـ على الساحل هناك الكثير من الفنادق، من الصعب جداً العثور على ذلك المرغوب فيه. أجاب:

ـ الأفضل هما إثنان؛ إن الخطأ غير وارد، الـ فورت اكواداييتس ثم الأوبروي. كلا الإثنين لهما أجواء رائعة، يطلان على شاطئ فاتن ويصلان حتى البحر. إني متأكد من أنك سوف تجد الاثنين ملائمين لذوقك.

نهضت متوجهاً صوب البوفيه. كان ثمة العشرات من السُفر فوق آلة التسخين بواسطة الكحول. تناولت صنفاً من الطعام دونما تحديد، وأنا ألتهم لقمة من هنا ولقمة من هناك. كنت أقف بمحاذاة النافذة المفتوحة، حاملاً الصحن في يدي. كان القمر بدراً جميلاً، ينعكس ضوؤه على الماء، الآن تظهر الكآبة كما سبق لي أن توقعت. تنبهت إلى أني لم أكن جائعاً. عبرت الصالة متوجهاً إلى المخرج، وبينما كنت أهم بالخروج، انحنى لي كبير النُدُل بخفة، قلت:

ـ إحمل لي النبيذ إلى غرفتي، أفضل تناوله في الشرفة.

12

ـ اغفري لي تفاهة سؤالي، ولكن لدي انطباع أنه سبق لنا وتعارفنا.

قلت ذلك وأنا أرفع كأسي وأنقر به كأسها الموضوع فوق المصطبة.

ردت الفتاة ضاحكة:

ـ لدي الإنطباع نفسه، إنك تشبه بشكل غريب ذلك السيد الذي رافقني بالتاكسي هذا الصباح من باناجي.

ضحكت أنا أيضاً، ثم قلت:

ـ حسناً، لافائدة من محاولة إخفاء الأمر، هذا السيد هو بالضبط أنا. أضافت وقد طغت على كلامها نبرة عملية:

ـ هل تعلم، إن تقاسم أجرة التكسي مع شخص آخر هي فكرة مذهلة. الدليل السياحي يقول إن التكسي في الهند لايكلف كثيراً، الأمر على العكس تماماً، إنه يكلفك عيناً من رأسك.

قلت مؤكداً بحزم:

ـ سوف أنصحك، فيما بعد، بدليل سياحي موثوق به أكثر. على كلٍّ،

النخيل. إني مطواعة جداً للمديح، ولا أجد في نفسي القدرة على مقاومة إغراءاته. أكاد أشك في صدق نيتك.

ثم رفعت كأسها محيية، وضحكنا سوية.

كانت الفخامة التي أشار إليها كبير النُدُل في الماندوفي أقل بكثير من الحقيقة. الأوبروي كان أكثر من مجرد أبهة، كان عبارة عن مبنى أبيض اللون، على شكل هلال، وهو يأخذ في الإنحراف والدوران حول الشاطئ الذي كان يطل عليه. هو عبارة عن خليج محمي من نتوء جبلي داخل البحر من جهة الشمال، ومن نتوء صخري في البحر من جهة الجنوب. القاعة الأساسية الكبرى هي مجال مفتوح يستمر حتى الشرفة. ومن هناك، كانت تقسمه مصطبة البار الذي كان من الممكن استخدامه من كلا الطرفين. وعلى الشرفة امتدت طاولات العشاء، مزدانة بأضواء وزهور. وثمة بيانو، مخبأ في مكان ما، مكان معتم، ويدندن بألحان غربية. ولكي نستوعب الأمر أكثر، كل هذا كان مخصصاً لسياحة جد فخمة وفاخرة، وفي تلك اللحظة لم يكن ليثير هذا أي ضيق في نفسي. الدفعة الأولى من الزبائن كانت قد سبق لها أن اتخذت مكاناً لها على الموائد. طلبت من النادل أن يحجز لنا مائدة في إحدى الزوايا، مكان منعزل وهادئ، في الظل. ثم طلبت منه إحضار المقبلات.

ـ بشرط أن لاتكون مدمناً على الخمرة.

قالت الفتاة، ثم أضافت بنفس النبرة المازحة:

لم تجب الفتاة، بل استمرت في شرب عصير الفواكه الذي كان قد حمله إليها النادل.

تابعت حديثي:

ـ ثم من قال إننا لا يعرف أحدنا الآخر، لقد سبق لنا أن تعارفنا هذا الصباح.

قالت معترضة:

ـ نحن حتى الآن لم يقدّم أحدنا نفسه للآخر.

قلت:

ـ إنها ثغرة يمكن سدّها ببساطة، أنا أدعى روكس.

ـ أنا أدعى كريستيان.

قالت الفتاة، ثم أضافت:

ـ إنه ليس اسماً إيطالياً أليس كذلك!

ـ وما المشكلة في ذلك؟

ـ فعلاً، لايوجد أية مشكلة.

أكدت الفتاة، ثم قالت بنبرة متحسرة:

ـ في الحقيقة إن مداعباتك لاتقاوم.

سألتها من أين هي قادمة. تطلعت نحو البحر ثم قالت:

ـ من كالكوتا، لقد قمت بجولة سريعة في بونديشيري حيث أسديت بعض الخدمات إلى بعض مواطني الذين يعيشون هناك، ثم عملت شهراً في كالكوتا.

ـ وماذا كنتِ تشتغلين في كالكوتا.؟

ردت كريستيان:

ـ التقط صوراً فوتوغرافية، أصور الفظاعة.

ـ كيف ذلك؟

ردت:

ـ البؤس، الانحطاط، الفظاعة، سمّها ماشئت.

ـ ولِمَ فعلتِ ذلك؟

قالت:

ـ إنها مهنتي، وهم يدفعون لي من أجل ذلك.

ثم قامت بحركة ما وكأنها تدلل بذلك على طبيعة الحرفة التي تمتهنها. ثم سألتني:

ـ ألم تذهب قط إلى كالكوتا؟

ـ يجب القيام بأقل مايمكن القيام به.

أشار النادل إلينا يخبرنا أن مائدتنا قد غدت جاهزة، ثم تقدمنا حتى وصلنا الشرفة. كانت طاولة جيدة تماماً كما طلبتها. سألت كريستيان إن كان بإمكاني الجلوس إلى يسارها، هناك جانب الدغلة، هكذا في وضعية تمكنني من رؤية الموائد الأخرى. كان النادل حصيفاً ومجتهداً تماماً مثل كل النُدُل في الفنادق الكبرى الشبيهة بالأوبروي. هل كنا نفضل طبخاً هندياً أم خاصاً بالبار؟ لم أكن راغباً في فرض ذوقي، ولكن صيادي كالانكوته كانوا قد أحضروا سِلالاً من جراد البحر، كانت جميعها هناك في قعر الشرفة تنتظر الطهي، وحيث كان يمكن مشاهدة الطباخ مرتدياً طاقية بيضاء، متهيئاً وعيناه زائغتان بانتظار من يأمره بالبدء بالطهي. كانت عيناه مشدودتين نحو الشرفة بانتظار الطلبات، كما كان يُشاهد مرجل الطهي هناك في الفضاء المفتوح. كان الضوء خافتاً، وعلى كل مائدة وُضِعت بعض الشموع، ولكن كان يمكن لكل إمرئ أن يشاهد الآخر هكذا بكل تركيز.

قالت كريستيان:

ـ سبق لي أن أنبأتك عن نوع العمل الذي أزاوله، هل تنوي أن تقابلني بالمثل وتعطيني فكرة عن نوع شغلك، إن لم يكن لديك مانع من الإجابة.

ـ آه، حسناً، لنقل إني في سبيلي إلى تأليف كتاب.

ـ أي كتاب؟

ـ كتاب...

ـ إذاً أنت روائي.

قلت:

ـ آه، لا. إنها مجرد تجربة، أما مهنتي الأصلية فهي البحث عن فئران ميتة.

ـ ماذا قلت؟

قلت:

ـ كنت أمزح، إني أبحث في أرشيفات قديمة، أبحث عن جداول زمنية قديمة، أشياء عفى عليها الزمان، هذه هي مهنتي وأنا أسميها البحث عن فئران ميتة.

كانت كريستيان تنظر نحوي بنوع من العطف والتسامح، ومن الممكن أن نظراتها كانت واهمة. ثم مايلبث النادل أن يهرع نحونا وهو متحمس جداً، يحمل إلينا بعض أطباق السلطة. سألنا إن كنا نرغب بالنبيذ، فأجبناه بنعم. يصل أخيراً جراد البحر وقد تصاعد البخار منه، مُحمّصاً فقط في منطقة الأفخاذ، أما اللحم فإنه غائص في الزبدة المائعة. السلطة كانت جدّ حادة، كان يكفي لقمة واحدة منها لكي يلتهب الفم، ولكن النار سرعان ماتخمد، إذ إن الفم سرعان مايمتلئ بالأرومو(*) اللذيذ وغير المألوف. استطعنا أن نتعرف على الجامبري، أما الأشياء الأخرى فقد كانت مجهولة لنا. التهمنا جراد البحر بتلذذ وأناة، ثم رفعنا كؤوسنا. اعترفت لي كريستيان بأنها قد سكرت بعض الشيء. ومن المحتمل أني أنا أيضاً كنت سكرانَ، لكني لم أتنبه لذلك.

قالت:

الواقع حتى قصة، إنها أجزاء من قصة، ثم إني لم أكتبها، لقد سبق لي أن قلت لنفترض أني أكتب.

كنا جد جائعين، أفخاذ جراد البحر كانت قد نفدت. خفّ النادل إلينا مسرعاً، طلبنا أشياء أخرى حسب ذوقه، كنا نوصيه بها وهو يسجلها.

قالت كريستيان:

ـ لقد نشرت منذ عدة سنوات ألبوم صور، كان عبارة عن شريط فيلم. لقد تم طبعه بعناية فائقة، تماماً كما كنت أرغب، كانت تظهر في الفيلم حتى أطراف شريط الفيلم. لم يكن ثمة تعليقات معه، فقط صور. كانت تبدأ بحالة أعدُّها أفضل ماقدمت حتى الآن. سوف أرسل لك نسخة منه إذا أعطيتني عنوانك. كانت الصورة عبارة عن عملية تضخيم، صورة لشاب زنجي، فقط الجزء العلوي من الجسم. كان يرتدي ملاءة كتبت عليها كتابة دعائية. جسم عارٍ، الوجه كان يعبر عن جهد قوي، اليدان مرفوعتان إلى أعلى وكأنهما تشيران إشارة نصر. كان الحجم بالطبع يفوق التصور، تقريباً مئة متر.

كانت كريستيان تنظر إليّ بحذر وهي تنتظر ردة فعلي.

قلت:

ـ إذاً، أين الغرابة في الأمر؟

ردت:

ـ الصورة الثانية، كانت صورة داخلية. كان ثمة رجل بوليس يرتدي زي المارينز، معتمراً خوذة واقية على وجهه، أحذية فرسان عالية، بندقية في اليد،

الصورة التي ضخمتها، كان التعليق يقول: (احذروا القطع المختارة).

ندت عنها تكشيرة بسيطة، ثم تابعت:

ـ بدون أي مقاطع مختارة، احك لي جوهر كتابك، أريد أن ألمّ بالموضوع.

حاولت أن أفكر قليلاً، كيف يمكن أن يكون كتابي هذا؟ من الصعب الحديث عن موضوع كتاب. كانت كريستيان تنظر نحوي بتصميم. إنها فتاة عنيدة.

قلت على عجل:

ـ لنقل مثلاً، إن الكتاب يقول إني قد تهت في الهند، هذا هو الموضوع.

ردت كريستيان:

ـ آه، لا. لايكفي هذا، لاتقتطع هذا من الموضوع. لايمكن أن يكون هذا ببساطة هو موضوع الكتاب.

كررت:

ـ الموضوع هو أني في هذا الكتاب قد تهت فعلاً في الهند. لنضع هذا السيناريو: ثمة من يبحث عني، لكن أنا، ليس لدي أية رغبة في أن يجدني هذا الشخص؛ لقد رأيته يقترب، تابعته يوماً بيوم، يمكنني القول إني أعرف مايفضله ومايكرهه، أعرف طرائقه في الهجوم وطرائقه في الدفاع، كرمه، خوفه، إني ممسك به وواضع إياه تحت مراقبتي. إنما هو على العكس من ذلك، لا يعرف

ـ هذا ما لن يقال أبداً في الكتاب، إني شخص لايريد أن يجده من يبحث عنه، على كلٍّ لايشكل القول من هو جزءاً من اللعبة.

ـ وهذا الذي يبحث عنك، والذي يبدو أنك تعرفه جيداً، هل يعرفك هو؟

ـ في يوم من الأيام كان يعرفني، لنفترض أننا كنا يوماً ما صديقين حميمين، ولكن هذا من زمن طويل، وخارج إطار الكتاب.

ـ إذا لم يبحث عنك بإصرار هكذا؟

ـ قلت:

ـ من يدري؟ من الصعب معرفة ذلك، حتى أنا الذي يكتب لأعرف شيئاً عن هذا. ربّما يبحث عن ماض ما، جواب لسؤال ما، أو أنه يريد التحقق من شيء فرّ منه يوماً ما، إنه بطريقة أو بأخرى يبحث عن نفسه، أريد أن أقول كأنه يبحث عن نفسه وهو يبحث عني، في الكتب يحدث في أحيان كثيرة شيء من هذا القبيل، إنه الأدب.

صمت قليلاً، وكأنما تمر الآن لحظة حاسمة، ثم قلت بحميمية:

ـ هل تعرفين؟ في الحقيقة هناك أيضاً امرأتان.

ـ آه، أخيراً، الآن يبدو الأمر أكثر أهمية.

تابعتُ:

ـ للأسف لا، لأن هذا أيضاً خارج إطار الكتاب، لا تمتُّ إحداهن بصلة

ـ حسناً، إروه لي بشكل أفضل.

قلت:

ـ اتفقنا. حسنا، الكتاب يبدأ هكذا، يصل هو إلى بومباي، لديه عنوان لفندق رديء جداً، كنتُ قد قطنت فيه يوماً ما، ثم يبدأ البحث، إنه يعرف فتاة كانت تعرفني يوماً ما، وهي تعلمه بأني مريض، وأني قد ذهبت إلى المستشفى. ثم إنه كانت لي صلات بأناس من جنوب الهند وهكذا يبدأ هو بحثه عني. في المستشفى أولاً ولكن أمله يخيب، يغادر بومباي، ويبدأ بخوض غمار رحلة، رحلة في البحث عني، هذه هي حجته، لكنه في الحقيقة يرتحل لأعمال خاصة به. الكتاب في الصميم هو هذا، رحلته، يقوم بعدة لقاءات، بالطبع ففي الرحلات يمكن لنا أن نلتقي بأشخاص. يصل إلى مدراس، يهيم في المدينة، في المعابد، هنا وهناك، ثم في إحدى المؤسسات الدراسية يعثر على جزء ضئيل من أثر مالي، وأخيراً يصل إلى جوا، وهو في كل الأحوال يجب أن يأتي إلى جوا لأعمال خاصة به.

تتابعني كريستيان الآن بمزيد من التركيز والاهتمام، على حين راحت تمصّ عوداً من النعنع وتحدق فيّ، قلت:

ـ في جوا، هذا مهم، بالضبط في جوا، ماذا يحدث؟

ثم أردفت:

ـ ثمة العديد من اللقاءات أيضاً هنا، يهيم بعض الشيء هنا وهناك، ثم في

وتنكرت به، لاأدري كيف استطاع الوصول إليه، لكنه وصل أخيراً، من الجائز أنها ضربة حظ.

ـ وماهو هذا الاسم؟

قلت:

ـ نيغنتال.

قالت كريستيان:

ـ إسم جميل، هيا تابع.

ـ حسناً، بالطبع يستطيع معرفة مكان وجودي؛ يوحي بأن له عملاً مهماً معي، وأحدهم يدله بأني أقيم في فندق فخم على الساحل، مكان بالضبط كهذا.

قالت كريستيان:

ـ أجل، هيا هيا، تابع، هنا يجب أن تروي لي بشكل حسن، نحن في وسط المشهد.

قلت:

ـ هذا حق، بالنسبة للمشهد، سوف آخذ بالضبط هذا: لنفترض أنها ليلة كهذه، حارّة ومملوءة بالعطر، فندق رفيع المستوى، يطل على البحر، شرفة كبيرة مملوءة بالموائد والشموع، موسيقى، نُدُل يجوبون المكان وهم متأهبون ومتحفزون للخدمة، طعام ممتاز، بالطبع الطبخ عالمي. أجلس أنا إلى مائدة مع

المقاعد وهم منخرطون في تناول عشائهم، كريستيان تكسر عود النعنع، وتضعه في فمها كأنه سيجارة، وهي تنتظر بشغف.

قلت:

ـ ماذا يحدث في هذه اللحظة؟ في تلك اللحظة أراه. إنه يجلس إلى مائدة هناك في العمق، في الطرف الآخر للشرفة، متجهاً اتجاهي نفسه، إننا متقابلان وجهاً لوجه، هو أيضاً بصحبة امرأة، كنت أرى أكتافها حيث كانت تتجه بظهرها إليّ، لذا لم أتبين من هي بالضبط، ربّما أعرفها، بل أعتقد بأني أعرفها، إنها تذكرني بامرأة ما، أو بالأحرى بامرأتين، قد تكون هذه أو تلك، ولكن هكذا، ومن بعيد، وعلى ضوء الشموع من الصعب التأكد من شخصيتها. ثم إن الشرفة جد واسعة، بالضبط كهذه، ويُحتمل أنه طلب من المرأة أن لاتلتفت إلى الوراء، إنه يحدق فيّ طويلاً، دون أن يأتي بأية حركة، تبدو عليه علائم الشعور بالرضا، إنه تقريباً مبتسم. من الجائز أنه هو أيضاً يعتقد بأنه يعرف المرأة التي معي، إنها تذكره بامرأة ما، أو بالأحرى بامرأتين، لعلّها هذه أو لعلها تلك.

قالت كريستيان:

ـ ولكن في النهاية، الرجل الذي يبحث عنه، هل وجده أخيراً؟

قلت:

ـ إن الأمر ليس كذلك بالضبط. لقد بحث طويلاً عني، والآن وقد

يناقش الفاتورة، يهمس للنادل، يدفع الحساب، يزحزح بكل أدب واحترام كرسي السيدة التي بصحبته، والتي تنهض معه، ثم يذهب. يكفي، هكذا ينتهي الكتاب.

كريستيان تنظر إليّ بريبة، تبعد كوبها وهي تقول:

ـ كم هي شاحبة هذه النهاية!

أجبت وأنا أبعد كوبي أنا أيضاً:

ـ هذا حق، إنها تبدو لي كذلك أيضاً، ولكني لا أجد حلاً آخر.

قالت كريستيان:

ـ نهاية القصة تتصادف مع نهاية العشاء.

أشعلتُ سيجارة، وأنا أومئ للنادل قائلاً:

ـ اسمعي يا كريستيان، يجب أن تعذريني، ولكني غيرت رأيي، سوف أدفع الحساب كله، أعتقد أن معي نقوداً كافية.

اعترضت كريستيان:

ـ أبداً، الاتفاق كان واضحاً، عشاء أصدقاء، وكلٌّ يدفع حسابه بنفسه.

قلت بإصرار:

ـ أرجوك، اعتبري هذا نوعاً من الإعتذار لأني سببت لك مللاً كبيراً.

أصرت كريستيان:

ـ ولكني استمتعت كثيراً إني أصر على أن نتقاسم دفع الحساب.

ـ أعتقد أن معجبك هو الذي فعل ذلك.

قلت:

ـ إنه شخص أكثر ظرفاً مني.

قالت كريستيان وقد بدت عليها أمارات الإنزعاج:

ـ لاتتفوه بحماقات.

قلت:

ـ هذا ليس حقيقياً، لقد سبق لي أن اتفقت مع النادل على كل هذا.

كانت الممرات التي تقود إلى الغرف مسقوفة بخشب لمّاع، أسقف واقية، كأنها تشبه ديراً، على حين أضْفتْ الخضرة الممتدة فوق السقف عليه ذلك المنظر المعتم. لا بد أننا كنا الأوائل الذين انصرفوا، ذلك أن الزبائن كانوا مايزالون ثاوين في الشرفة يستمعون إلى الموسيقى. كنا نسير جنباً إلى جنب، صامتين، وفي عمق الشرفة رفرفت فراشة ضخمة.

قالت كريستيان:

ـ ثمة شيء في كتابك، أحس به غريباً، أكاد لاأفهمه، لست أدري بالضبط ماهو، ولكن هذا هو شعوري.

أجبت:

... المفاهيم الزائف للموضوع، يجب رؤية الأشياء من بعيد.

(احذروا القطع المختارة).

سألتني:

- كم ستمكث هنا؟

- أسافر غداً.

- هكذا بسرعة؟

- قلت:

- تنتظرني فئراني الميتة.

حاولت أن أقلد طريقة كريستيان في تأكيد أهمية ذلك عندما كانت تتحدث عن شغلها، ثم أضفت:

- إني أتقاضى أنا الآخر أجراً من أجل ذلك.

ابتسمت، ثم أدخلت المفتاح في قفل الباب.

انتهت

هرمس مثلث العظمة (النبي إدريس)	تأليف: لويس مينارد
الأحناف... (التوحيد قبل الإسلام)	تأليف: عماد صبّاغ
الفرعون الأخير أو (زوال حضارة)	تأليف: فرانسيس فيفر
مفهوم العدل في الإسلام	تأليف: د. مجيد خدّوري
موسوعة الجيب لقواعد الإنكليزية	إعداد: نورالدين البهلول

إصدارات قادمة

- أقاصيص شرقية (قصص)
- الجنس في أديان العالم
- قوّة الأسطورة
- دكتاتورية العقل في الغرب
- الجنّة كما رآها الكُتّاب والفلاسفة والفنّانون عبر العصور
- الحضارة اللاواعية

ترجمتها عن دار ورد بدمشق. تُرجمت أعماله إلى لغات عالمية عديدة.

ليالٍ هنديّة

يفترض الكاتب ـ مبرراً طريقته غير المباشرة في الكتابة ـ أن هذا الكتاب يمكن أن ينفع كدليل سياحي، ليس لكل الناس، بل فقط لمن يهوى القيام برحلة غير عادية. ثمة كثير مما هو غير عادي في هذا البحث عن صديق مفقود، ظِلٌّ لِماضٍ تتم الإشارة إليه من خلال بعض التقاطعات المحددة.

في هندٍ لا تُعْرَف إلا من خلال حجرات الفنادق والمستشفيات، من خلال ما تومض به بعض الحوارات الجوهرية مع سحرة يتم الإلتقاء بهم في البولمانات، مع مبشرين برتغاليين، مع غنوصيين تابعين لإحدى المؤسسات الثيوصوفية. إنها رحلة استثنائية تظهر من خلال بعض الإيحاءات والمصادفات التي تبدو ضرورية جداً. وعبر كل هذا يتم توضيح منهج الكتاب. إنه الجانب الليلي والخَفِيّ للأشياء.